ايب لنكولن

من الكوخ الى البيت الابيض

تأليف ستيرلنج نورث

ترجمة احمد كمال

الناشر

عالم الكتب

٣٨ شارع عبد الخالق ثروت ـ ت ٥١٤٠١

القاهرة.

محتويات الكتاب

ABE LINCOLN : LOG CABIN TO WHITE HOUSE

BY

STERLING NORTH

Published by Random House, New York

الفصل الأول

طفل ناشئ

«من الممكن تلخيص قصة حياتى فى جملة واحدة ، وهذه الجملة نجدها فى مرثية توماس جراى (التاريخ القصير والبسيط للفقير) » . .

أبراهام لنكولن

أسرع دنيس هانكس الذى كان فى التاسعة من عمره فى الطريق المؤدى إلى كوخ لنكولن قافزاً فوق مستنقعات المياه التى تكسر فوقها الثلج ومتخطياً الأخاديد المتجمدة ، وسار حذاء الطريق المتعرج الذى يخترق التلال التى تحد « نولين كريك » .

كان ذلك يوم الأحد ١٢ فبراير سنة ١٨٠٩ ، يوم يجب أن تظل ذكراه مخلدة فى التاريخ الأمريكى . وفى صباح ذلك الشتاء البارد لم يكن دنيس يهتم بشىء إلا أنه ولد لتوم ونانسى هانكس طفل أسمياه أبراهام .

وكثيراً ما جاء توم فى هذا الطريق لزيارة عائلة لنكولن إذ أنه ونانسى كانا ابنى عم ، وكانا قد نشآ معاً فى حضانة خالتهما وخالها توم وبتسى سبارو . فلا عجب لذلك إذا أرادت عائلة لنكولن أن تكون عائلة سبارو أول من يرى الطفل .

وكان الدخان الأزرق يتصاعد من مدخنة كوخ لنكولن عند ما دخل دنيس مندفعاً إلى الفسحة ،وذيل قبعته المصنوعة من جلد الراتون يتطاير خلفه في الهواء ... وتعجب دنيس كيف سيكون شكل « إيب » الطفل . وبالرغم من أن دنيس لم يكن يهتم كثيراً بالأطفال إلا أن طفل نانسي كان حدثاً غير عادي .

وما أن رفع دنيس سقاطة الباب ودلف إلى الغرفة الوحيدة في الكوخ المضاءة بلهب النيران حتى رأى الطفل لأول مرة راقداً إلى جوار أمه نانسي التي لم تفارق البسمة وجهها برغم تعبها ، ذلك الطفل الذي سوف يصبح يوماً ما أحب رئيس لأمريكا .

وبعد سنين كثيرة ، عند ما أصبح دنيس هانكس رجلا مسناً كان يحب أن يروي ما حدث في ذلك الصباح البارد — وربما أضاف في حديثه إلى الحقائق بعضاً من تخيلاته كما يفعل دائماً الرجال الكبار في السن . ولكن مستمعيه لم ينسوا أبداً القصة كما حكاها لهم : « كانت نانسي راقدة في السرير تبدو على وجهها السعادة . وأشعل توم ناراً وغطى نانسي وطفلها بجلد دب لتدفئتهما » .

وكانت بتسي سبارو تحوم في البيت ، تقوم بعمل ما يمكن أن تفعله امرأة لأم وطفلها فقد « حممت إيب الصغير وألبسته ثيابه الداخلية والخارجية ، وطبخت بعضاً من التوت الجاف مع عسل النحل وغسلت الأواني . . . »

وسمحت نانسي لدنيس أن يحمل الطفل الذي كان وجهه في لون الكرز الأحمر ، ولكن دنيس بعد ذلك بدقائق أعطى الطفل الباكي إلى عمته بتسي قائلا « خذيه يا عمي فإنه لن يصبح شيئاً يذكر » ..

وكان يمكن لنبوءة دنيس أن تتحقق لأن أفراد عائلتى لنكولن وهانكس كانوا فقراء ولا يمكنهم أن يتصوروا أن هذا الطفل سيكون يوماً ما شخصاً عظيماً ومشهوراً .

وأمضى إيب الطفل سنته الأولى فى المهـــد لا يحتاج إلا إلى الطعام والدفء والحب . ولم يكن يرى من مهده غير ضوء النيران ، وعجلة المغزل تدور ووجه أمه الحنون فوقه ، وربما رأس والده توم لنيكولن ذا الشعر المشعث والوجه المكدود حينما كان يأخذ بندقية الصيد من مكانها فوق المدفأة وغالباً ما كان يرى وجه أخته ساره التى كانت تبلغ من العمر عامين والتى كانت تنظر إليـــه بحنان ، وتهز مهده وتضحك عالياً عندما كان إيب يبتسم ، وتتساءل دائماً متى يكبر إيب حتى يمكنها أن تلعب معه وتحادثه .

وفى السنة الثانية من عمره كان إيب يمشى بقدر استطاعته معتمداً على يد أخته . ولا بد أنه قد زار نبع الماء الصافى الذى كان ماؤه البللورى يخرج من كهف صغير جارياً بين الأحجار الصغيرة المغطاة بالطحالب ، متسرباً فى الأرض إلى المجهول محدثاً صوتاً موسيقياً رخيماً .

وعندما أدرك أبراهام لنكولن مدارج الرجولة لم يكن يتذكر أى شيء .. لا عن مزرعة النبع المختفى ، ولا عن مكان ميلاده فى جنوب فورك بمقاطعة نولين كريك بجوار هودجنفيل . كانت أولى ذكرياته عن مزرعة أخرى كانوا قد رحلوا إليها عندما كان عمره عامين ، لا تبعد كثيراً عن المزرعة التى ولد فيها . وبنى توم لنكولن كوخه الخشبى هذه المرة فى وادى نوب كريك الخصب وتحت ظلال تل ولدروه ، ولكن دنيس هانكس يذكر أنه لم يمض وقت طويل حتى أصبح إيب يلعب مرتدياً حذاءه من جلد الغزال ، وبنطلوناً طويلا وقميصاً من الكتان وقبعة من جلد الراكون ، ويذكر أيضاً أن إيب لم

يتعب أمه منذ تعلم المشي إلا أن تحتفظ بملابسه عليه . ويذكر أيضاً أنهما كثيراً ما كانا يخرجان حفاة الأقدام . وأشد ما كان يحبه إيب أن يخرج مع دنيس وأبيه والكلاب فى صيد الراكون وفى تتبع النحل للعثور على خلاياه . وكانت هذه حياة مثيرة لطفل مثله ، كاد أن يفقـــد حياته يوماً ما فى أحد مخاطرها . وكان إيب لنكولن أيضاً يتذكر هذه الأيام إذ كانت أولى ذكرياته عن نوب كريك وعن مزرعتهم التى كانت تتكون من ثلاثة حقول فى الوادى تحيط بها التلال العالية والوديان العميقة . ولا ينسى يوم السبت الذى زرع فيه الأولاد القمح فى الحقل الكبير الذى كانت مساحته حوالى سبعة أفدنة ، ويذر هو بذور القرع بذرتين فى كل صف . وفى صباح الأحد هطلت الأمطار كثيراً على التلال ولم تسقط قطرة مطر واحدة فى الوادى ، ونزل سيل الماء من التلال على الحقل ومسحه ولم يبق فيه أى شىء . وفى هذا السيل كاد إيب أن يغرق لولا أن مد له صديقه أوستن جولاهر الذى كان قريباً منه لحسن الحظ ، غصن شجرة تعلق به إيب فأنقذه .

واكتسب إيب خبرته ومعلوماته عن العالم الخارجى الواسع فى مزرعة نوب كريك حيث كانت تمر أمام باب كوخه القوافل الآتية من كمبرلاند وبها مسافرون من كل نوع وباعة متجولون ورواد يبحثون عن الأراضى الجديدة وعبيد مقيدون بالسلاسل . ويذكر أنه أعطى مرة سمكة كانوا قد اصطادوها إلى أحد العساكر المسرحين من حرب ١٨١٢ ، وكان دائماً يرى ويسمع أشياء كثيرة ، وبالرغم من شقاوته وسنه الصغير إلا أنه كان محباً للمعرفة .

وذات يوم جاء إلى تلك المقاطعة مدرس يدعى زكريا رايني ابتدأ يعلم فى كوخ خشبى قذر حيث كان التعليم بطريقة القراءة بصوت عال . وهكذا اكتسب إيب عادة القراءة لنفسه بصوت عال طوال سنى حياته .



أما توماس لنكولن فلم يكن يحب العلم . وكتب أبراهام عن والده أنه كان عاملا متجولا نشأ بدون أن ينال أى قسط من التعليم ، يكاد يخط اسمه بصعوبة بالغة . كان صائداً ماهراً ونجاراً ، وعاملا مجداً ومحدثاً بارعاً .

وبالرغم من جهل وفقر عائلة نانسى ، كان كثيرون يذكرون أن نانسى هانكس لنكولن كانت امرأة ذات رقة بالغة وذكاء فطرى غلاب . وكان البعض يرجح أنها تستطيع أن تقرأ وتكتب . ولم يكن من المشكوك فيه أن هذه الأم المحبة لأبراهام وسارة أصرت أن ينال ولداها قسطاً من التعليم ولو لبضعة أشهر .

وفى خلال سنة ١٨١٦ لاحظت نانسى أن زوجها توماس لنكولن أصبح قلقاً وكاد أن يفقد أرضه مرة أخرى لأن رجالا آخرين طالبوا بأحقيتهم فيها . وكان من الصعب جداً على مزارع فقير لا يملك عبيداً يعملون عنده أن يستمر فى العمل فى مقاطعة تعترف بالرق . لذلك تناقش توماس مع زوجته فى أن يذهبا إلى شمال نهر أوهايو حيث توجد أرض خصبة واسعة لا يقطنها أحد حيث يمكن أن يبدآ هناك من جديد .

ويمكننا أن نخمن الأفكار التى راودت نانسى لنكولن حين ذهب زوجها وحيداً يكتشف الأرض الجديدة ، ذلك الرجل الذى غير مجرى حياته ثلاث مرات خلال السنوات العشر من حياته الزوجية ، فهل يمكن له الآن أن يستقر ويرضى ؟ وكان ذلك العام أبرد عام مر على تلك البقاع حتى إن الرواد أسموه عام « الف وثمانمائة والتجمد حتى الموت » . ولم يتمكن توم من العودة من إنديانا إلى منزله إلا فى أواخر الخريف بعد أن ينقضى الشتاء ، وكان على نانسى أن تقضى هذا الشتاء المخيف وحيدة مع ولديها . وكثيراً ما كانت تبكى وهى وحيدة فى ظلام كوخها ، إلا من صوت الرياح تتسلل مصفرة من المدخنة .

ولكن أى انتقال جديد بالنسبة إلى إيب كان بمثابة مغامرة مثيرة وهو الذى كثيراً ما كان يتسلق السفح الممتـــد خلف الكوخ، ينظر فى اتجاه أنديانا الممتدة أميالا بعيدة نحو ، الشمال والتى كان إسمها يثير فى مخيلته صور الهنود الحمر ، وهو بالطبع لن يخاف الدببة التى تكثر هناك لأنه بعد قليل سوف يبلغ الثامنة من عمره وسيكون فى استطاعته حمل البندقية أو استعمال البلطة كأى رجل بالغ .

وكان إيب يظلل عينيه بيديه من شمس أكتوبر ويتعجب هل ذلك الخط الأزرق الذى يراه بعيداً جداً نحو الشمال هو جزء من السماء أم هو نهر أوهايو العظيم الذى تمتد على شواطئه أرض إنديانا الموعودة ؟

الفصل الثاني

المخيم المؤقت

« وصلنا إلى بيتنا الجديد في نفس الوقت الذى انضمت فيه إنديانا إلى الاتحاد الأمريكي . وهناك نشأت المقاطعة البرية التى تملأ فى غاباتها الدببة والحيوانات المتوحشة »

أبراهام لنكولن

ولما عاد توم لنكولن من رحلته الاستكشافيه فى نوفمبر ، قال لنانسى وللأولاد إنه قد استطلع مزرعة تبلغ مساحتها حوالى ١٦٠ فداناً بجوار « بيجون كريك » تبعد بضعة أميال شمال نهر أوهايو ، وطبعاً أخبرهم عن الأرض الخصبة وعن الغزلان والديكة الرومية البرية التى تكثر هناك . ولكنه ربما نسى أن يخبرهم أن أقرب مكان به ماء صالح للشرب هو نبع ليس بالقريب من المزرعة ، وأن الغابة مليئة بالدببة والذئاب والنمور والقطط المتوحشة ، وأن المستنقعات القريبة من هناك تنشر الملاريا فى كل مكان .

وبالرغم من أن حكومة إنديانا المحليه كانت تعطى فرصاً جيدة لتمليك الأرض أكثر من حكومة كنتاكى .. وأن الأرض هناك كانت أكثر خصوبة ، إلا أن أباً مثل توم لنكولن قد أصابه القلق لأن ينتقل مع امرأته وأولاده فى مثل هذا الشتاء القارص إلى الأرض الجديدة حيث لا يوجد حتى كوخ يأويهم ويقيهم شر تقلبات الجو . وليس لدينا أى مصدر موثوق به يحكى لنا قصة انتقالهم الجديدة إلا حديث شاهد العيان الوحيد دنيس هانكس .. قال :

« جمعت نانسي كل الخرق التي يمكنها استعمالها فيما بعد في كيس مصنوع من التيل ووضعها أنا على ظهر الحصان بينما حمل إيب بندقيته .. أما توم فقد ترك وراءه أعمدة السرير والكراسي والموائد الخشبيه الصغيرة لأنه كان أسهل له أن يصنع غيرها من جديد بدلا من أن يتحمل مشقة أخذها معه » .

وبعد يومين من الترحال وصلت عائلة لنكولن إلى الضفة الجنوبية من نهر أوهايو العظيم ، ومن تلك البقعة الجميلة عبروا إلى الضفة الأخرى للنهر الواسع ، حيث نزلوا في مزرعة رجل اسمه بوسى .. ومن هناك واصلت العائلة رحلتها المضنية خلال الغابة التي لم تطأها أقدام أحد من قبل إلا نادراً في طريق ضيق لمسافة ستة عشرة ميلا ... ووجهتهم المزرعة الجديدة .

وفي الطريق الذي كانحوا خلاله إلى هدفهم كانت أشجار الغابة مازالت تحمل بقايا أوراق الخريف ، وشجر الجوز والزان يتألق تحت أشعة الشمس الذهبية ، وشجر الاسفندان في لونه القرمزي يبهر النظر . وترك شجر الجوز ثماره تتساقط وتغطي أرض الغابة .. وبهرهم منظر شجر البلوط في استمراره الضارب إلى الحمرة ،والجميز المغموس في الضوء الخافت على امتداد كل جدول قابلوه .وفي كل مكان بين أشجار الجوز والصفصاف والدردار انتشرت شجيرات العنب ، تاركة عناقيدها البكر القرمزية تتدلى من بين الأوراق الصفراء. وهناك وقبل أن تطأ قدم إنسان تلك البقعة البكر ، نمت الأشجار الضخمة كأنها الأبراج العظيمة .. تمتد على طول مرمى البصر .. تملأ الأفق البعيد .. وتهاكأ العالم الذي يمكنهم تخيله .

وفى مجاهل هذه الغابة ، لم يظهر أثر لأى هندى من الأعداء حيث أن قبائل الهنود الحمر لم تكن تعيش عام ١٨١٦ فى إنديانا الجنوبية . وعلى الرغم من ذلك فإن إيب الصغير احتفظ ببارود بندقيته جافاً حينما كانوا يعبرون نهر أوهايو واهتم بمراقبة الطريق مراقبة دقيقة أثناء ترحالهم خلال الغابة لأنه لم يكن لينسى أنه سمى باسم جده الذى قتله الهنود الحمر فى كنتاكى . وكثيراً ماسمع إيب قصة مقتل جده يقصها عليه والده ، تلك القصة التى استعادتها اذكرته فى جو الغابة التى ملأها عواء الذئاب الآتى من بعيد . « لقد كان أبراهام لنكولن الكبير جد إيب صديقاً لدانيال بون وكان قد انتقل مع زوجته وأولاده الثلاثة وابنتيه من فرجينيا عبر الجبال واستقر فى كنتاكى عام ١٧٨٢ حيث سجل باسمه قطعة أرض تبلغ مساحتها ألفى فدان فى بلاد النهر الأخضر .

وفى أحد أيام مايو ١٧٨٦ عندما كان جد إيب وأولاده يعملون فى الحقل ، انطلقت رصاصة من أكمة قريبة سقط أبراهام بعدها على الأرض ومات بعد دقائق قليلة ، وبينما هرع أخوا توم لطلب النجدة ، بقى هو إلى جوار جثة والده ، وهو الذى لم يكن قد بلغ الثامنة من عمره بعد . وما أن التفت توم خلفه حتى رأى هندياً يندفع نحوه من مكمنه . وفزع توم لأن الهندى إما أن يأسره وإما أن يقتله فى الحال : وتعلقت عينا توم بميدالية ذهبية كانت تتدلى من صدر الهندى ، وبعدها بلحظات سمع صوت طلقة أخرى تدوى فى الفضاء وشاهد الدم يندفع غزيراً من الثقب الذى أحدثته الرصاصة تحت الميدالية . . وسرعان ما ارتمى الهندى على أثرها تحت قدمى توم ، فقد كان الذى أطلق الرصاصة شقيق توم الذى كان يستطيع إصابة أى هدف على مرمى البندقية » .

وبموت أبراهام الجد تفرقت العائلة فى الجهات الأربعة ، وكان من نصيب توم أن يرحل إلى إنديانا .

وما أن وصل أبراهام لنكولن بذكرياته إلى هذا الحد حتى أفاق على صرخات نمر بعيدة ، بعثت بالرعشة إلى أوصاله .

وما أن وصلوا إلى المزرعة الجديدة حتى تعرف إيب عليها بأكوام القش التى كان والده قد وضعها على أركانها الأربعة لتحدد مساحة ١٦٠ فداناً . وسرعان مانصبوا مخيماً مؤقتاً يرتكز على أعمدة خشبية ، سقفه من القش وأغصان الأشجار، وتركوا واجهته الجنوبية مفتوحة، وأقاموا أمامها ناراً من الحطب تركوها مشتعلة ليل نهار . وفى تلك المرحلة كانت أوراق الأشجار هى فراشهم وغطاؤهم . وما كان أسوأ ماتؤول إليه حالهم حينما كانت تمطر السماء إذ تحاصرهم المياه من كل جانب فلا يدرون مايفعلون . ولكن ماأن استقر بهم الحال قليلا حتى بدأ توم فى بناء كوخ قوى جديد ، وكان على إيب وأخته ساره ووالدهما أن يبقيا فى المخيم المؤقت طوال المدة المتبقية من الشتاء القاسى حتى يتم لنكولن الكوخ الجديد . ومن حسن الحظ أن الغذاء كان متوفراً فى تلك الأنحاء ، لكن الماء كان مشكلة المشاكل إذ ظل إيب لمدة عدة سنوات يذهب إلى النبع الذى يبعد مسافة ميل كامل كلما احتاجت العائلة إلى الماء . وفوق ذلك كان يساعد والده فى احتطاب الخشب لبناء كوخهم الجديد .

وبعد تلك الحقبة بسنوات عديدة ، كتب أبراهام لنكولن فى مذكراته يقول وكأنه يحادث شخصاً ما :

« كان أبراهام بالرغم من صغر سنه أكبر من سنه بكثير ، وكان يجيد استعمال بلطة أعطيت له منذ صغره ، فظل يستعملها فى كل شيء حتى بلغ الثالثة والعشرين .



وفى تلك السنين ابتدأ أبراهام تجاربه فى الصيد . . إذ أنه قبل أن يبلغ الثامنة من عمره بأيام وحين كان أبوه غائباً عن الكوخ شاهد أبراهام سرباً من الديكة الرومية البرية يقترب من كوخهم الخشبي ، فأطلق عليه النار خلال ثقب فى حائط الكوخ وقتل أحدها . ومنذ ذلك التاريخ لم يشد أبراهام زناد البندقية مرة أخرى .

ومع شهر إبريل (نيسان) بدأ الربيع فى موجاته المتتابعة ، يحمل الأشجار بالأوراق ويفتح الزهور على طول نهرى المسيسبي وأوهايو حتى وصلت بشائره إلى « بيجون كريك » وجملت المخيم المؤقت وخلعت على الكوخ الخشبي حلة رائعة من الزهور البيضاء تموج بالندى النقى وكأنها كأس الآلهة . وزحف الربيع إلى ما وراء ذلك تخلل العشب الأخضر تاركاً وراءه البنفسج الأرجوانى والشقين الأصفر كأنه النحاس (٢) .

وفى خريف ١٨١٧ اكتملت وحدة عائلة لنكولن بوصول دنيس هانكس وتوماس دنيس سبارو اللذين كانا كما نذكر قد تبنيا نانسى لنكولن وابن عمها دنيس ، واللذين عرفا بأبويها فيما بعد كأب وأم نانسى لنكولن الحقيقيين . واقامت عائلة سبارو فى المخيم المؤقت الذى كان لنكولن قد تركه للسكن فى كوخه الجديد الذى تم بناؤه والذى جهزه لنكولن بحمام . ونصبت نانسى مغزلها هناك ، وكان فى استطاعتها أن تطبخ على نار تخرج من مدفأة حقيقية وأن تنام على سرير ، وحصلت مرة أخرى على كراسى صغيرة ومائدة للطعام . ولكن توم لم يستطع أن يزود الكوخ بنوافذ لها مفصلات ولم يكن عنده مشمع لتغطية فتحات النوافذ ، لذلك كان الهواء البارد يتسلل من تحت الجلود التى كانت تغطى الثقوب والفتحات الموجودة فى الكوخ ، ولا عجب إذ لم يستطع الرواد الأوائل أن يعيشوا طويلا فى مثل هذه الظروف .

وبينما كان البرد يهرأ أوصال أفراد عائلة لنكولن فى كوخهم غير المكتمل شتاء عامى ١٨١٧ و ١٨١٨ ، كانت عائلة سبارو تتجمد أوصالها فى المخيم المؤقت الذى نزلوا فيه . وبالرغم من الصقيع والبرد استطاعت العائلتان تجهيز ٦ فدادين لزراعتها عند حلول ربيع عام ١٨١٨ ، واعتمدوا فى أكلهم على الصيد وثمار الغابة .

وما أن حل خريف العام التالى حتى أصاب تلك المنطقة وباء مخيف وغامض لم يفرق بين الإنسان والحيوان . ومهما كان أمر هذه الغمة ، إلا أنها أصابت توماس ودنيس سبارو فتركتهما مريضين فى رعاية نانسى . ولم يمض وقت قليل حتى سقطا ميتين فى مضجعهما المصنوع من القش . ولم يمض وقت طويل على مواراتهما مقرهما الأخير حتى سقطت نانسى صريعة لهذا الدواء الوبيل . وكان أقرب طبيب يبعد عنهما مسافة خمسة وثلاثين ميلا . وحتى لو كان فى استطاعة توم إحضاره لما كان فى استطاعته أن يفعل شيئاً ، إذ أنه لم يكن فى كل تلك البلاد من يعرف علاج هذا الوباء .

وعندما انقشعت السحب وتركت السماء بزرقتها الصافية ، واخضرت الأوراق من جديد ، ودعت الأم الصالحة ولديها أبراهام وساره إلى جوارها وطلبت منهما أن يعداها بأن يحب كل منهما الآخر ويعطف عليه . . أسلمت روحها إلى بارئها تاركة وراءها يتيمين ومغزلا صامتاً لا يدور ، وبدا الكوخ كأنه حزين ووحيد فى وسط تلك الغابة الواسعة .

وساعد إيب ودنيس وتوم فى صنع الكفن لنانسى وحفروا لها قبراً فى الغابة وضعوها فيه . وبالرغم من أن إيب كان فى التاسعة لمن عمره فقط ، إلا أنه لم ينس أبداً الطريقة المؤلمة التى ماتت بها أمه : كان كل شىء هادئاً حتى إن أوراق الخريف تساقطت ، ومرت ريح الشتاء دون أن تحدث أى صوت . وكان المكان الذى دفنت فيه نانسى هو ملاذ إيب كلما شعر أنه حزين أو وحيد .

الفصل الثالث

الأم الجديدة

« كان إيب ولداً طيباً . لم يغضبنى أبداً لا بالفعل ولا بالقول . وكان يحب كل إنسان وكل شىء . وبالرغم من صغر سننا كان تفكير عقلى وعقله يسيران فى نفس الاتجاه » .

سارة لنكولن

ولمدة عام كامل بعد وفاة نانسى لنكولن قامت سارة التى لم تكن قد جاوزت الثانية عشرة من عمرها بكل مسئوليات المنزل تجاه والدها وأخيها الذى بلغ العاشرة ، ودنيس هانكس أيضاً .. كانت الحياة فى الكوخ غير المكتمل على روابى « بيجون كريك » ... تسير فى بؤسها بلا أمل وكان أكثر ما يحز فى نفس توم أنه لم يستطع أن يشيع زوجته نانسى وعائلة سبارو إلى مقرهم الأخير بالصلاة الضرورية لرحلتهم [illegible] وخفف من ألمه القس « إلكن » الذى وصل من مقاطعة هاردن قبل أن يقرأ الصلاة الأخيرة على روح الراحلين بحضور إيب وسارة ودنيس وتوم [illegible] الذين ركعوا بخشوع يطلبون من الله الرحمة للذين ذهبوا وباتت رفاتهم رماداً . ولكن الكلمات مهما كانت لا يمكن أن تعوض الإنسان أحباءه الذين فقدهم .. فنانسى لم تعد هناك لتعطيهم القوة والحب والعطف والحنان ، وتغزل لهم ملابسهم ، وتضع لهم الصابون والشمع .. وفى ذلك [illegible] الكئيب الملىء باليأس لم يعد أحد منهم يهتم بنفسه . [illegible]

ومع الخريف التالى جاءت الذكرى الأولى لوفاة نانسى ، ولم يعد توم يحتمل ألم الفراق ، فقرر الذهاب فى رحلة إلى كنتاكى تاركاً وراءه الأولاد الثلاثة لوحدتهم وتخيلاتهم . وعندما كانت الريح تصفر فى الليالى المظلمة وتتساقط أوراق الخريف فوق سقف الكوخ ،كان يخيل لهم أنها وقع أقدام نمر مخيف يتحسس طريقه إليهم لينشب فيهم مخالبه .

ولم يضيع توم أى وقت حين وصل إلى بلدة إليزابيث حيث قصد لتوه إلى منزل « سارة بوش جونستون » التى كان قد تودد إليها قبل زواجه من نانسى هانكس وكان زوج سارة قد توفى تاركاً لها ثلاثة أطفال هم إليزابيث ومانيلدا وجون ، وبينما كان ولدا توم فى حاجة إلى أم كان أولاد سارة الثلاثة فى حاجة إلى أب .

وكما حكى قصة الزواج الجديد شاهد عيان ، قال توم لسارة « ليس لى الآن زوجة وليس لك أنت أيضاً زوج ، وقد عرفتك منذ كنت طفلة وعرفتنى أنت منذ كنت أنا صبياً وليس لدى وقت لأضيعه هنا . فإذا كنت ترضين الزواج بى فيجدر بنا أن نتزوج حالا . . . » . وردت عليه سارة قائلة « تومى العزيز ، حقاً عرفتك جيداً وليس لدى أى مانع لأن أتزوجك ولكن يجب أن ننتظر قليلا لأسدد ديونى » . ولكن هذا الموقف لم يثبط من عزم توم فقد دفع كل ديون سارة . وفى اليوم التالى ، فى الثانى من ديسمبر ١٨١٩ تزوجها .

ودهش إيب وسارة ودنيس لرؤية العربة التى تجرها الخيول الأربعة تأتى محملة بالدواليب والأدراج والأدوات المنزلية من المغزل إلى أطباق الصفيح . وبالإضافة إلى كل ذلك حملت لهم العربة أماً جديدة ترتسم البسمة

على شفتيها ، وحملت لهم أيضاً أخاً جديداً وأختين جديدتين . ولا بد أن سارة بوش جونستون كانت ذات أخلاق حميدة إذ أنها تركت منزلها الصغير النظيف المريح المؤثث لتأتى وتعيش فى كوخ ذى أرضية قذرة وبدون نوافذ ولا أبواب ، ليس به إلا بعض قطع الأثاث الخشبية ومراتب من القش وسرير خشبى . وكان إيب وسارة ودنيس أبعد ما يكونون عن النظافة حتى أن دنيس نفسه اعترف بقوله إن ملابسهم كانت ممزقة وقذرة حينما وصلت سارة إليهم ، وكان أول شيء فعلته سارة أن طلبت من دنيس أن يضع بعض المقاعد الخشبية بجوار باب الكوخ . وبعد ذلك « جعلتنى أنا وإيب وابنها جون جونستون نملأ الحوض بالماء من النبع . ووضعت هناك علبة ملأتها بالصابون السائل وإلى جوارها صفيحة مليئة بالماء . وطلبت منا أن نغسل أيدينا استعداداً للغداء ، وشعرنا بأهميتنا عندما تكون العمة سارة موجودة » . ولم يطل الأمر بإيب وأخته حتى أحبا زوجة أبيهم الأنيقة المحبة ، وبدأت هى بدورها تهتم بنظافة ملابس أطفالها الجدد بكل همة ونشاط . مسحت الكوخ ونظفته ولم تترك أثراً للعنكبوت ، وأصرت على أن يصنع لها توم باباً جديداً بمفصلات ، وأسرة جديدة أيضاً ، بينما ملأت هى المراتب بقش جديد ، ووضعت فوقها مراتب من الريش الذى أحضرته معها ، واشترت بعض الجير دهنت به حوائط الكوخ وسقفه ، ووضعت فى أحد أركانه المكتب الذى كلفها يوماً ما ٤٥ دولاراً ، وشعر إيب انه أصبح إنساناً جديداً . ولم تدخر زوجة الأب الجديدة أى جهد فى سبيل تشجيع طموح إيب إذ كانت امرأة ذات رقة وسحر وشجاعة . وصفتها إحدى حفيداتها بأنها امرأة طويلة منتصبة القامة كالهندى الأحمر ،

أنيقة ، تحسن الحديث وذات كرامة . . احتفظت بالكوخ فى نظافة تامة وسيطرت على الأولاد بكل محبة وتحمل . وكثيراً ما شاركت إيب ضحكاته العالية .

وما كان أجمله من عيد ميلاد صاخب ليلة ٢٥ ديسمبر ١٨١٩ عند ما أعدت سارة الديك الرومى وبعض لحم الغزال للأطفال الجياع . . وكم كانت سعادة توم لنكولن عند ما تمتم بكلمات الشكر للسعادة التى منحه إياها الله ، حينما رأى الأولاد مجتمعين حول المائدة يحتفلون بعيد الميلاد فى كوخ نظيف مع أم ترعاهم .

الفصل الرابع

التعليم على الحدود

كانت هناك مدارس . هكذا كنا نسميها . ولـكن لم تـكن مؤهلات المدرس تتعدى إجادته القراءة والـكتابة .. ولم يوجد أى حافز لإثارة الطموح و الإنسان للتعليم ... »

أبراهام لنسكولن

كل من رأى أبراهام لنـكولن فى صباه ، تلك الفترة التى أمضاها حافى القدمين ، يذكر عنه شيئين . أولهما أن بنطلونه كان قصيراً لا يكاد يبتعد عن ركبتيه ، وثانيهما أنه كان دائماً يحمل كتاباً فى يده ، مما ساعد أبراهام على أن ينمى عقله جنباً إلى جنب مع جسده . فمن الناحية الجسمية ، أصبح لنـكولن فى أوائل عشرينياته فتى طويلا عملاقاً . أما من الناحية العقلية فقد أصبح أذكى فتيان الناحية على الإطلاق وأسرعهم بديهة . وكان فى استطاعته أن يستولى على انتباه أية مجموعة من الناس بتقليده خطابة الوعاظ أو السياسيين .. ويجعلهم يضحكون من كل قلوبهم ، أو ينصتون مرهفى السمع حينما كان يعيد عليهم ما استعادته ذاكراته من بعض الصفحات التى قرأها . وكان أبراهام لنـكولن بطبعه خجولا فى بعض الأحيان ، وأحياناً أخرى محباً لاستعراض مهارته . كان رقيقاً . وعلى الرغم من ذلك لم يكن ليتردد فى أن يقاتل بضراوة إذا ما أثار ثائرته أحد .

وفى خلال حياته كلها . . حتى بعد أن أصبح رئيساً للجمهورية كان أبراهام يبدو حزيناً لأنه لم يستطع أن يتلقى تعليماً منتظماً ، وكان قانعاً بالقسط الذى ناله من الثقافة من خلال قراءته الخاصة . وبالرغم من نشأته فى محيط فقير غير متعلم إلا أنه كافح وحيداً بكل صلابة حتى أصبح أكثر حكمة من ملايين الناس الذين اغترفوا من مناهل العلم والدراسة .

كانت حياة أبراهام لنكولن التعليمية بالقسط كما وصفها بنفسه . إذ درس على يد خمسة أساتذة : اثنان فى كنتاكى وثلاثة فى إنديانا . وكان مجموع مدد الدراسة لايزيد عن عام واحد . أما عن أساتذته فى إنديانا فكانوا كراوفورد ودورس وسوانى ، وكان كل زاده من الكتب هو كتاب القراءة وكتاب الحساب والإنجيل . وكانت جميع المدارس فى مناطق الحدود تتشابه ، فيدفع الطالب مصاريف عينية من إنتاج المزرعة مثل اللحم أو القمح . وفى بعض الأحيان جلد الراكون . والمدرسة نفسها عبارة عن كوخ خشبى يدخله قليل من الضوء ، مقاعدها غير مريحة . وبينما تكاد وجوه الطلبة الذين يجلسون فى المقاعد الأمامية تحترق من لهيب المدفأة ، يرتعد الطلبة الذين يجلسون فى الصفوف الأخيرة من البرد الذى يكاد أن يجمد أصابعهم فيجدون صعوبة كبرى فى الإمساك بالقلم .

وأثناء الفصل الدراسى كان على إيب أن يسير إلى المدرسة التى تبعد أربعة أميال ونصف الميل ، ومثلها فى العودة منها . . لكن تمتعه بمنظر السنجاب وهو يحمل ثمار البلوط والجوز إلى وكره . . أو بمنظر الغزلان وهى تمرح فى الغابة فى الجو الصحو قد خفف عنه تلك المسافة ، أما أيام الشتاء المطيرة الباردة ، فلقد قاسى منها الأمرين ، إذ كثيراً ما كان يعود من المدرسة وقد تجمدت أطرافه من البرد وثيابه تقطر ماء

ووصف دنيس هانكس هذه الأيام بقوله :

« لم تكن الأحذية تحمى أرجلنا من البلل ، وكانت جواربنا مليئة بالثقوب . وزاد من ألمنا تلك الأميال التسعة التى كان علينا أن نسيرها فى الذهاب وفى الإياب فى ذلك الجو البارد العاصف » .

وبالرغم من كل هذا التعب ، فقد أحب إيب المدرسة وحاول الاستفادة من كل يوم قضاه فيها إذ كان يصل إليها مبكراً ، متفوقاً على أقرانه فى الصف الدراسى فكان أولهم دائماً . ولم يكن يخطىء أبداً فى هجاء الكلمات مما جعل مدرسه يتعلق به ويؤثره على بقية زملائه .

والمدارس فى إنديانا هى الأخرى كانت على شاكلة مدارس كنتاكى ، تنهج على التدريس بالصوت المرتفع ، فكان على كل تلميذ بالفصل أن يستذكر دروسه بصوت مسموع ، حتى يخيل لكل من يقترب من المدرسة أنها خلية نحل تموج بالصوت والحركة . وكان المدرس يستعين بعضا من خشب الجوز فى حشو عقول التلاميذ بالمعلومات . . وكان عليه أحياناً أن يستعين بعضلاته فى قتال تلميذ كبير ليثبت أنه الأقوى . ولا عجب إذا لم يتعلم أحد شيئاً . .

حاول كرافورد كثيراً أن يعلم تلاميذه الأخلاق بأن يجعل أحد طلبته يقرع الباب قبل الدخول ، ثم يقدم نفسه كأنه غريب عليهم حتى يعودهم الأدب وحسن التصرف . أما فى مدرسة دورس فكان أهم شىء تعلمه إيب هو القراءة بطلاقة ووضوح إلى جانب اكتسابه الخط الجميل . ومن العجيب أن يطلب منه فى مدرستى دورس وسوان ، وهو ابن الحدود الخشن ، أن يكتب مقالات عن عدم استعمال العنف مع الحيوانات . ولكنه كان دائماً محباً للشعر يحاول

أن يكتبه . وبالطبع لم يستطع منافسة شكسبير فيما كتب ! وفى أحد دفاتره المدرسية نجده قد كتب هذه الأبيات الحزينة بخط يده :

إن الوقت يتلاشى كالبخار

وتمر الأيام سراعاً

خاطفة كأنها سهم هندى

تطير كالشهاب

فلا نحس إلا باللحظات التى نعيشها

والتى هى بدورها تتلاشى فى اللانهاية

حتى لانستطيع أن نقول إننا عشناها

إذ أنها هى الأخرى أصبحت ماضياً لن يعود .

ولا عجب لذلك إذا رأينا عدداً من جيران إيب يذكرون عنه أنه كان « كسولا » وأنه لم يكن يحب عمله كثيراً . . ودنيس هانكس نفسه الذى كان معجباً بلنكولن اعترف أن إيب كان . . « كسولا جداً . . دائماً يقرأ . . ويكتب . . ويسمع لنفسه مايقرأ . . ويحلل إيب بنفسه هذا الموقف بقوله لأحد المزارعين أن والده علمه كيف يعمل لكنه لم يعلمه كيف يحب عمله .

والحقيقة أن لنكولن الصغير الذى كان ينمو باستمرار عقلياً وجسدياً كان دائماً مشغولا بتثقيف نفسه ، بالإضافة إلى الأعمال اليدوية التى كان يزاولها منذ أن بلغ الثامنة من عمره . ولم تكن هذه الثقافة بالنسبة للذين كانوا



يعيشون فى تلك المناطق تعتبر عملا . لكن هذا الصبى الغير الذكى كان يعد نفسه لمستقبل عظيم لم يخطر لمثل هؤلاء القوم على بال (ولم يخطر على باله هو أيضاً).

ويبدو أن توم لنكولن كان مسروراً وفى نفس الوقت غاضباً من هذا الابن المتعب الذى كان يجب أن يساعده فى فلاحة الأرض وإقامة سور حولها . إذ كان فى استطاعة إيب أن يغرى أى شخص بأن يترك عمله ويقف ليسمعه وهو يحاول التمثيل بالإشارات ، معبراً عن معان خاصة تجعل كل الموجودين يضحكون .

وكثيراً ما فعل ذلك فى كل مكان . . فى محل جنترى . . وفى محل الحدادة. . . وفى الطاحونة حيث كان لنكولن يذهب ليطحن الحبوب وأصبح محبوباً من الجميع هناك . كان يشاهد دائماً وبيده كتاب يقرأ فيه . . أثناء الأكل ، وأثناء حراثة الأرض ، وبجوار المدفأة . وكم تعجب توم الذى لم يكن ليستطيع أن يكتب اسمه من الفائدة التى يمكن أن يجنيها مثل هذا الفتى من كثرة القراءة .

كان يقول بعض الناس إن أباه كان يعطف عليه ولم يحاول أبداً أن يقطع عليه دراسته . ولكن دنيس هانكس الذى كان يشعر بمحبة عميقة لكل من توم وإيب شهد بأن توم كان يضرب ابنه أحياناً عندما يتجاوز حدوده مع الغرباء . لكن إيب وجد التشجيع على المضى فى القراءة فى زوجة ابيه . ومن إحدى مهازله ، أن أبراهام لنكولن رفع بين يديه طفلا تلوثت أقدامه بالطين وجعله يستند بهاتين القدمين على حائط الكوخ الأبيض الجميل . وبدلا من أن تغضب زوجة أبيه عندما رأت الآثار القذرة التى تركتها القدمان ، انفجرت ضاحكة، مما جعل إيب يخجل من نفسه ويسرع بتنظيف المكان. وتشابه إيب

وزوجة أبيه في التفكير جعلهما على وفاق دائماً فهى لم تكن لتوبخه أبدا عندما تراه يقرأ إلى ما بعد انتصاف الليل أو أثناء تناول الطعام .. فلقد كان من رابع المستحيلات أن يمنع أحد الصغير لنكولن من التمتع بسحر الكلمات المكتوبة ، التى كانت تحمله على أجنحة الأحلام وتزوده بالعلم والمعرفة .

قال دنيس هانكس إنه لا يذكر أنه رأى أبراهام لنكولن بعد بلوغه الثانية عشرة من عمره إلا ومعه كتاب ، وحين كان يذهب لفلاحة الأرض كان يضع الكتاب داخل قميصه .. وفى وقت راحته عند الظهر كان يضطجع فى ظل شجرة وارفة يقرأ ويأكل .. ثم يختار مكاناً مريحاً فى الكوخ ليقرأ فيه عند عودته ليلا من الحقل . والعادتان اللتان لم تفارقا أبراهام لنكولن طوال حياته كانتا القراءة وطريقة تمدده أثناء القراءة . وأولى الكتب التى قرأها بنهم شديد كانت خرافات إيسوب ، وروبنسون كروزو ، ورحلة الحاج ، وتاريخ حياة واشنطن . قرأ هذه الكتب عدة مرات حتى استطاع أن يحفظ منها عدة صفحات عن ظهر قلب .

ومما يجدر ذكره فى هذا المقام أن كثيراً من الناس انتقدوا كتاب قصة حياة واشنطن وذكروا بسخرية الجزء الخاص بواشنطن الصغير، حين اعترف لوالده أنه هو الذى قطع شجرة الكرز بفأسه الجديدة وذلك حتى لا يكذب. لكن قلما تعرض أحد لما كان لهذا الكتاب من أثر عميق دائم على شخصية إيب الأمين. فكثيراً ما حاول أبراهام لنكولن أن يحذو حذو واشطن حتى إننا نرى الآن تشابهاً كبيراً بين الرئيسين الشهيرين . فالاثنان ينحدران من اصل إنجليزى وكلاهما طويل القامة . « كان طول واشنطن ستة أقدام وبوصة واحدة بينما كان طول لنكولن ستة أقدام وأربع بوصات » . وكان الاثنان

من هواة الرياضة في شبابهما ، كما تعلم الاثنان فن السباحة . وبالطبع أصبح الاثنان من رؤساء الولايات المتحدة . والحقيقة المؤكدة أن الاثنين كانا أمينين فوق العادة. ولعل من بين الشباب الناشيء اليوم من سيتأثرون طول حياتهم بقراءة تاريخ حياة واشنطون ولنكولن . ولعل من بين هذا الشباب أكثر من واحد سيكون رئيساً للجمهورية في المستقبل . وفي الأيام التي كان يعيش فيها لنكولن .. كان على الأولاد أن يرتبطوا بآبائهم حتى سن الواحدة والعشرين ولم تكن هذه الفرصة لتفوت توم لنكولن ، فكان يحصل لنفسه على ما يكسبه إيب من عمله ، كان يرسله أحياناً إلى الجيران ليذبح لهم ماشيتهم مقابل ٣١ سنتاً في اليوم . وبالنسبة لشخص مثل إيب الذى تعلم أن يكون محباً للحيوانات ، وكتب في ذلك مقالات أثناء دراسته ، وترك الصيد لأنه لم يكن يحب رؤية مقتل الحيوان — لم يكن مثل هذا العمل محبوباً لديه . لكن الشيء الوحيد الذى من أجله كان يقبل أن يذهب لهذا العمل هو أنه أتاح له الفرصة في الخطابة فيمن يذهب إليهم ويتسابق ويمرح معهم . وكانوا كثيراً ما يتبادلون معه النكت النابية ، وبالرغم من أن الجميع كانوا يشربون في هذه المناسبات ، إلا أن لنكولن لم يكن يقرب الخمر أبداً . وكان شغفه بالمعرفة يزداد يوماً بعد يوم . وكانت قصصه ممتعة بمقياس تلك الأيام ، لكن تفكيره وعقليته كانتا أكبر بمراحل كبيرة من كل جيرانه ومن كل من قابله أثناء بحثه عن كاتب جديد او جريدة ليقرأها ، وكانت قراءاته السياسية أول الأمر عن الحزب الديموقراطي ، وأخيراً اتجه ليحبذ رأى « الهويج » ، وبقي من أنصارهم أكثر من ربع قرن حتى التحق بالحزب الجمهورى في منتصف عام ١٨٥٠ ، وهو الحزب الذى أدخله أخيراً إلى البيت الأبيض .

وفي أثناء هذا الوقت ، اكتشف إيب كتابين كان لهما تأثير كبير على عقليته الناضجة ، هذان الكتابان هما (قوانين إنديانا) وكتاب (الطبقة



الكولومبية) ، ولم يثر الأول اهتمام لنكولن بالقانون لحسب ، بل قوى من إيمانه واهتمامه بمواد إعلان الاستقلال الجديدة التي أدخلها توماس جيفرسون. وأثار هذا الكتاب أيضاً اهتمامه بوثائق أخرى هامة كالتعديلات العشرة الأولى للدستور . وتعلم من هذا الكتاب أن على الولايات الشمالية الغربية . بما في ذلك إنديانا ذاتها ، أن تحرم الرق للأبد. وهكذا خرج لنكولن بنظريته العظيمة أن جميع الرجال خلقوا متساوين وأن الخالق وهبهم حقوقاً لا تنفصم ، ومن بينها حق الحياة والحرية والبحث عن السعادة .

أما الكتاب الثاني (الطبقة الكولمبية) فإنه وسع من أفقه أبعد من حدود الولايات المتحدة ، بل حتى أبعد من نصف العالم الغربي . فمن ذلك الكتاب ازدادت معرفته وعلمه بالجغرافيا وتاريخ العالم أجمع . ونقله هذا الكتاب أيضاً أبعد من عالمنا الذي نعيش عليه . إذ فهم إيب منه أن عالمنا هذا ليس إلا واحداً من عدة كواكب تدور حول الشمس البعيدة الملتهبة ، وأنه حتى هذه الشمس ليست إلا واحدة من ملايين الشموس التي نطلق عليها النجوم . وكان هذا الكتاب كفيلا حقاً بتوسيع مداركه وأفقه .

وعلى ضفاف أحد الجداول ، وأربعة أقدام تتدلى في مائه - أقدام إيب وإحدى جيرانه من الفتيات وتدعى كيتي روبي — وعلى ضوء غياب الشمس من بعيد وظهور القمر بنوره الفضي ، قال لنكولن لكيتي إن الشمس نفسها لا تنزل ولا القمر يصعد ، لكن الذي يحدث فعلا أن الأرض تدور حول محورها مما يجعلنا نرى هذه الأجسام السماوية تهبط وتصعد . ولم يكن إيب يحب كيتي ، لكنهما كانا صديقين . ولم تنس كيتي طوال حياتها ذلك الدرس البسيط البديع في علم الفلك ، ولا كم كان إيب لنكولن يبدو ذكياً بل عالماً ، حين جلس على حافة ذلك الجدول في تلك الأمسية الهادئة ، يشاهد معها بزوغ القمر من بين أشجار إنديانا الجنوبية ، كأنه قرص من الذهب .. مستدير .



الفصل الخامس

السفر بالقارب في نهر المسيسبي

« أنا لا أخجل من اعترافي بأني كنت عاملا أجيراً ، وأني اشتغلت مع العمال لمد خطوط السكك الحديدية ، وعملت على قارب صغير .. كما يحدث تماماً لأي رجل فقير .. » .

أبراهام لنكولن

كان أبراهام لنكولن خلال حياته كلها مهتماً بالقوارب والملاحة النهرية . ومما يذكر أنه قبل أن يولد إيب ، بني والده توم قارباً حمله الكثير من إنتاج المزرعة وأبحر به عبر نهر أوهايو والمسيسبي إلى نيوأورليانز . فقد كانت الوسيلة الوحيدة لنقل المحاصيل في تلك الأنحاء هي عن طريق النهر . أما المكان الوحيد لتصريف إنتاج المزارع فقد كان ميناء نيو أورليانز .

وقبل أن يتمكن إيب من أن يقوم بأول رحلة له في النهر ، كان عليه أن يتعلم أصول المهنة ، فعندما بلغ السادسة عشرة من عمره ، عمل مع جيمس تايلور في بناء معدية صغيرة وبدأ في استغلالها عند مصب أندرسون كريك حيث يلتقي أحد الروافد بنهر أوهايو . ولم يكن يكسب من هذا العمل أكثر من ٣٧ سنتاً في اليوم في مقابل ذلك العمل الشاق . لكنه كان يكسب بالإضافة إليها قليلا من النقود كلما أخذ بعض الركاب في قاربه الصغير لينقلهم إلى إحدى السفن الراسية في قلب النهر . لكنه لم ينس أبداً ذلك اليوم الذي عبر فيه النهر برجلين إلى أحد المراكب المنتظرة ، وكافأه الرجلان

حينذاك بقطعتين فضيتين من نصف الدولار ، ولم يكن الصبي الفقير مصدقاً أنه استطاع أن يكسب دولارا كاملا فى أقل من يوم واحد .

وببلوغ لنكولن السابعة عشرة من عمره أصبح طوله ستة أقدام وبوصتين ، وارتفعت البوصات إلى أربع ببلوغه التاسعة عشرة من عمره . كان أميناً موثوقاً به محبوباً من جميع جيرانه ، واصبح شاباً قوياً حتى إنه كان يستطيع أن يستعمل هراوته أقوى من أى رجل آخر يعيش فى ذلك الجزء من إنديانا ، فلاغرو ان يمنحه جيمس جنترى فرصة كانت هى فرصة العمر بالنسبة لإيب .

كان جنترى من أغنى رجال تلك المقاطعة ، يملك مخزن المدينة ، ويملك أيضاً أكثر من ١٠٠٠ فدان مزروعة . وما أن عرض على أيب أن يبنى مع نجله ألن قارباً ليحملاه بالإنتاج ويذهبا به إلى نيوأورليانز ، حتى اقتنص إيب الفرصة ولم يدعها تفلت من يديه ، كانت مكافأة إيب عبارة عن ثمانية دولارات فى الشهر بالإضافة إلى نفقاته طوال مدة خدمته بما فيها رحلة العودة .

وكانت القوارب المسطحة من أقسى أنواع المواصلات النهرية إذ كانت تصنع من دعائم مربعة كبيرة وألواح خشبية سميكة يتراوح طولها من ٢٠ إلى ٨٠ قدما وتتكلف بناء كل قدم طولى حوالى الدولار . كانت هذه العائمة عبارة عن خليط من كوخ ، وقلعة ، ومخزن عام ، وبقالة متنقلة ذات جوانب عالية يكفى طولها لحمايتهم من رصاصات قطاع الطرق الهنود وقراصنة النهر . ولكن هذه القوارب كانت ثقيلة إلى حد أنها لاتستطيع المناورة أو الرجوع إلى الوراء ضد التيار على الرغم من استطاعتها أن تحمل الكثير من البضائع إلى ميناء نيوأورليانز الغنى ، وأغلبها من الحبوب والويسكى واللحوم .



ولم يكن أبراهام لنكولن ليهتم بالصعاب التى سيقابلها فى تشييد مثل هذا القارب ، إذ أنه كثيراً ما ساعد والده فى البناء الذى أكسبه مهارة فائقة فى استعمال القدوم والبلطة والمنشار وكل أدوات النجارة الأخرى ، ولا بد أن جيمس جنترى قد نظر بعين الاعتبار إلى كل هذه المؤهلات حين استعان بلنكولن لخدمته .فلم يكن بناء المركب والسفر به عملية سهلة يناط أمرها برجل ضعيف.فالحياةفى مثل هذه المياه كانت شاقةومتعبة إلى جانب خطورتها . . وبالرغم من أن ملك القراصنة « مايك فنك » الذى اشتهر بضراوته وبعدم رحمته لأحد ممن وقعوا فى قبضته — إذ كان يقتلع عيونهم ويجدع أنوفهم — بالرغم من أن هذا القرصان لن يكن يباشر قرصنته فى الوقت الذى استعد فيه إيب وألن لبدأرحلتهما فى بريل ١٨٢٨،إلا أنه كان هناك قراصنة آخرون فى مثل قسوة وعنف « مايك فنك » يباشرون نشاطهم فى تلك المياه .

كان لنكولن بطىء الغضب ،ولكن جيمس جنتر كان يعرف مقدما أنه إذا صادفتهم أية متاعب فى الطريق إلى نيو أورليانز ، فإن ابنه ألن سوف يجد فى لنكولن خير رفيق ليدافع عن القارب وحمولته ، فإذا أمكنهم تخطى الكهف الصخرى مأوى القتلة وقطاع الطرق على شاطىء إلينوى فى نهر أوهايو ثم تجنبوا أوكار القراصنة الأقل خطراً بأمان، فربما استطاعا الوصول إلى نيو أورليانز بسلام.

وحين بدأت بشائر الربيع الأولى فى الظهور وبدأت أغصان الأشجار تمتلىء بالأوراق الخضراء عبأ إيب وألن قاربهما الجديد بالمؤن والبضائع وكل ما كان جنترى يود بيعه فى نيو أورليانز ، وبدأ الاثنان مغامرتهما المثيرة من أرض جنترى .

يمر نهر أوهايو فى تلك المقاطعة عريضاً هادئاً يحمل على صفحته فى

أيام الخريف بعض الأغصان ، بينما يحط البط والأوز البحري في أسراب عديدة على صفحته أيام الربيع وهي تتجه شمالا مهاجرة نحو القطب ، فتردد صيحاتها المثيرة في جوانب الغابات . وكان الصيادون يرسون بمراكبهم إلى جوار الروافد طلباً للراحة أو لتناول الطعام ـ ومن آلاف الروافد كان النهر العظيم يستمد ماءه. واستمر إيب وألن في سيرهما بالقارب مع التيار سواء أكان الجو مشمساً أم مطيراً ، ينامان مساء في المأوى الخشن في نهاية القارب. حتى استطاعا أن يتخطيا بسلام الكهف الصخرى الشهير ، ودخلا إلى المنطقة الموحلة من نهر المسيسبي .

ولقد كانت المراكب البخارية تسير في النهر ، العظيم منذ سنة ١٨١١ عندما كان عمر إيب عامين ، فلقد تم بناء ثماني سفن بخارية لاستعمالها في النهر عام ١٨١٧ . وفي خلال عامين نزل إلى النهر أسطول آخر مكون من ستين سفينة أخرى . وبالإضافة إلى ذلك كان النهر يعج بالقوارب والصنادل المتفاوتة الأحجام تحمل على ظهورها المستوطنين الجدد بمؤنهم وأدواتهم . وكثيراً ما شاهد إيب وألن هذه السفن البخارية وهي تنفث دخانها الأسود في سماء إبريل الصافية . ولو أنهما بدءا رحلتهما في ذلك القارب قبل ذلك بسنوات لشاهدا أضخم مركب بخارى للجيش الأمريكي راسية على الشاطيء ، وهي تلك التي صنعت على هيئة تنين ضخم جعل طلاؤها الأسود منظرها يبدو وكأنه وحش هائل من وحوش ما قبل التاريخ يرقد على الماء يبعث بالرعب إلى قلوب المحاربين الهنود . وبالرغم من أن إيب وألن لم يشاهدا هذا الوحش إلا أنهما قاما بمغامرات مثيرة .

وكثيراً ما حذرت (مجلة الملاح Teh Navigator) التي كانت لسان حال الملاحين في تلك المياه الجنوبية من أخطار تهدد الملاحين ، من بينها انهيار

ضفاف نهر المسيسبي المرتفعة على القوارب إذا اقتربت من الشاطيء — وكانت أيضاً من بقايا فروع الأشجار المدببة التي تستطيع أن تخترق قاع القارب إذا ما اصطدمت به .. وكانت أشد هذه الأخطار الجزر الخشبية العائمة التي كانت تشكل عائقاً خطيراً على القوارب إذ كان التيار يدفع بعض القوارب التي أهمل ملاحوها المراقبة ، لتصطدم بهذه الجزر فتتحطم .

هل كان لدى لنكولن ، الذي كان دائماً يقرأ في كتاب أو جريدة أثناء عمله في القارب، وقتاً لكي يتناقش مع ألن جانترى في الصراع السياسي الناشب من أجل رياسة الجمهورية بين أندرو جاكسون وكوينسي آدمز ؟ وهل استطاع إيب أن يرى ثروات وادى نهر المسيسبي ؟ أو هـــل ترك خياله يكتشف مصارف الري في الشمال بعظمتها ؟ أو مجاهل الغرب والجبال التي تحد الشرق الأكثر تقدماً في الصناعة ؟ وهل استطاع أن يرى حقيقة أن هذا الجنوب الذي يسافر فيه — مملكة المزارعين وعبيدهم — كان يشكل خطراً على تناسق أمة جبلت على الحرية ؟ ربما لم تخطر هذا كله على بال لنكولن بالمعنى الصحيح، لكنه كان دائماً يفكر .وأفكار الشباب عميقة وطويلة المدى . لا يمكننا أن نعرف بالضبط ماذا دار بخلده أثناء تلك الرحلة وهو يبحر في المسيسبي . . أما إذا بحثنا عن المغامرة البدنية ، فقد كانت قادمة قبل أن يتحدى إيب بعض روافد النهر . فذات ليلة حينما أصبح القارب قريباً من الوصول إلى نهاية غايته ، وعندما بات الوصول مؤكداً إلى نيوأورليانز بسلام ، توقف إيب بقرب مزرعة مدام دونسن .

وكما روى لنكولن بعد ذلك « كان نقص المؤن التي نحملها يضطرنا إلى أن نتوقف على فترات تجاه ساحل السكر للتجارة » . وهكذا في تلك الليلة ، حينما كانا نائمين في مأواهما على ظهر القارب هاجمهما سبعة من الزنوج بقسوة .



وعنف . كان منظر الزنوج يدل على نيتهم المبيتة للقتل والسرقة .. وبالرغم من إصابتهما نتيجة للمفاجأة فى هذا القتال ، إلا أنهما استطاعا أن يردا المهاجمين ويصداهم . وفى سرعة قطعا الجبال التى كانت تربط قاربهما إلى الشاطىء وواصلا إبحارهما حتى المغيب ، وجرح لنكولن فوق عينه فى تلك المعركة وبقيت معه تلك الندبة طوال الحياة .. لكنه لم يشعر بمرارة فى قلبه لهذا الهجوم ، ولم يستنتج من ذلك أن الزنوج قتلة أو قطاع طرق ، لأنه كان يعرف كثيراً من البيض والهنود ممن يقومون بتلك الأعمال الدموية إلى جانب أعمال القرصنة . ولذلك فإنه بعد خمس وثلاثين عاماً وقع لنكولن وثيقة التحرير التى تنص مادتها الثالثة عشر على تحرير كل زنجى مستعبد فى الولايات المتحدة .

كان ميناء نيوأورليانز العظيم عالماً جديداً بالنسبة لإيب وألن . كانت القوارب قد شدت إلى المرفأ فى صفوف يصل طولها إلى عدة أميال ، وكانت القوارب تصل إلى الميناء من الخليج وعلى ظهرها بحارة غرباء تتدلى من آذانهم قرطان من الذهب ، وكانت منازل المدينة متباينة الألوان يخالها المرء قوس قزح ، فى حين تشكل شعب المدينة من مختلف الجنسيات فمنهم الفرنسى أو الأسبانى أو المكسيكى ، أو من العبيد ذوى البشرة السوداء اللامعة كأنها الأبنوس البراق .. كانت مناظر تثير حب الاستطلاع فى هذين الشابين اللذين جاءا من حدود « بيجون كريك » . كان الجميع يختلط عليهم سمع أجراس الكنائس وهى تصلصل بينما تداخلت صيحات الباعة الجائلين كل ينادى على بضائعه ، ولقد نجحا فى بيع سلعهما بسرعة ، وحان الوقت للبدء فى

رحلة العودة فاستقلا إحدى السفن البخارية الصاعدة فى النهر عام ١٨٢٨ ، وكانت هذه السفينة فاخرة الأثاث تعج بالمقامرين فى صالة اللعب، قبطانها هو الحاكم بأمره فى تلك المملكة العائمة — وهى الحقيقة التى ظلت فى مخيلة لينكولن بعد عودته من رحلتهما التى استمرت طوال شهرين كاملين ، وما أن استقر امرة أخرى فى إنديانا الجنوبية فى شهر يونيه حتى طلب إيب من صديقه ذى النفوذ القوى وليم وود أن يؤدى له خدمة هامة . يقول وليم وود « جاء إيب ذات ليلة إلى منزلى ووقف أمامى فى حياء وهدوء فعرفت أنه يريد شيئاً ما . وسألته، ماذا بك يا بنى ؟ فقال لى أريد منك يا عماه ان تأتى معى إلى النهر وتوصى بى إحدى السفن لأبحر فيها .. لكننى أجبته قائلا : لكنك لم تبلغ الواحدة والعشرين بعد يابنى . . فرد على إيب قائلا : أنا أعرف ذلك ولكننى أريد أن أبدأ » .. ومن أجل مصلحة أبراهام لنكولن نفسه لم يحقق صديقه لهذا الرجاء ، وهكذا لم يكن من المقدر للنكولن أن يصبح قبطاناً لإحدى السفن البخارية .

انكب أبراهام لنكولن المتبرم والمشاكس فى بعض الأحيان ، على القراءة ، بشراهة عجيبة وهو يؤدى الأعمال التى كانت تطلب منه فى قلق وتبرم..واستمر فى حكاية قصصه لمن يقابله ، واستعراض قواه الجسمانية ، وكتابة بعض سخرياته . ويبدو أن أبراهام لنكولن حمل فى نفسه ثأراً لعائلة جرجزبى لأنه آمن بينه وبين نفسه أن آرون جرجزبى — الذى تزوج من أخته ساره — كان مسئولا إلى حدما عن وفاتها أثناء وضعها طفلها الأولى بإهماله .. ولكنه آمن من ناحية أخرى أن الوقت كان يمضى سريعاً وأنه لن

يبق ليساعد أباه فى المزرعة الفقيرة بجنوب إنديانا ... لقد ظل ينتظر على أحر من الجمر عامه الحادى والعشرين لينعم بحريته وانطلاقه .

وهكذا لم يكن لنكولن ليحس بالتعاسة ، عندما علم أن عائلته تستعد مرة أخرى للانتقال إلى حدود جديدة حيث منطقة البرارى السوداء الغنية فى وسط إلينوى .

الفصل السادس

حدود إلينوي

« وفى الحادية والعشرين من عمرى جئت إلى إلينوى » .

أ . لنكولن

لم يكن أبراهام لنكولن هو الوحيد فى العائلة الذى كان يحس بالقلق وعدم الرضى فإن الوباء الذى حل من قبل ، عاد مرة أخرى إلى « بيجون كريك » وقتل أربع بقرات وأحد عشر عجلا من مواشى دنيس هانكس فى أسبوع واحد . وعاد توماس لنكولن فقيراً مرة أخرى كما بدأ عندما جاء إلى إنديانا بعد أن بلغ الثانية والخمسين من عمره ، وهو الذى لم يحالفه النجاح فى حياته من قبل ، عاد توماس ليستمع والأمل الكبير يراوده من جديد ، إلى الإشاعات التى كانت تتداول عن الأرض الجديدة الخصبة عبر نهر واباش بوسط إلينوى .

« أظن أن جون هانكس هو أول من شعر بالقلق ورحل إلى إلينوى وكتب إلينا من هناك أنه حصل لنا على أرض جديدة وطلب منا أن نذهب إليه ... » بهذه الكلمات تحدث دنيس هانكس عندما كان يستعيد الكلمات والأسباب التى دعت عائلات لنكولن وهانكس وهول وجونستون إلى الرحيل عن إنديانا .

ودائماً وأبداً ، كان توم على أهبة الاستعداد للرحيل أينما شاء لأنه لم

يكن يمتلك شيئاً ذا بال يخلفه وراء ظهره . فالأرض التي يعيش عليها لم يكن قد دفع ثمنها بعد . وهكذا باع ما تبقى لديه من حبوب وماشية وحزم أمتعته فى عربة تجرها الثيران . « ورحلنا جميعاً نحن عائلات لنكولن وهانكس وجونستون ، وما زلت أتذكر أننا كنا كإحدى قبائل إسرائيل التى تبحث دائماً عن أرض كنعان أرض الميعاد . أرض اللبن والعسل على حدود بلاد الأباش الجديدة . وكم رأت تلك الحقول السندسية عائلات قلقة مثلنا أثناء مرورها إلى الأراضى الجديدة . ولقد باع توم لنكولن أيضاً مزرعته بأى مبلغ أتت به . وودع أصـــدقاءه وجيرانه وسرعان ما امتلأت العربات بالأدوات المنزلية والأمتعة والنساء والأطفال . وبدأت العربات رحلتها المتعبة خلف الثيران المكدودة . وقاد إيب إحدى القوافل وكان يثير الضحكات مع كل ضربة من سوطه . وغالباً ما كانت أفكار لنكولن الشاب تتوه فى أمور جدية مثل خطبة دانيال ويستر فى مجلس الشيوخ محذراً أنه لا يمكن لأية ولاية أن تلغى أحد القوانين القومية . ولم يكن لنكولن ليستطيع أن ينسى بعض الكلمات الرنانة فى تلك الخطبة . . الحرية والاتحاد ، الآن وإلى الأبد ، معاً لا يتجزءان » .

تكونت القوافل من ثلاثة عشر مسافراً خلال القفار الباردة . توم وسارة بوش جونستون ولنكولن وأبراهام ابن سارة ، جون جونستون وإليزابيث ابنة سارة التى تزوجت دنيس هانكس وأولادها الأربعة وما تلده الإبنة الثانية لسارة وزوجها اسكوير هول وابنهما الصغير . كانت الرحلة بطيئة ومتعبة بل مؤلمة أيضاً .

استمر الموكب فى سيره البطىء شمالا نحو مدينة تنسى فى بلاد الأباش التى تعد من أكبر مدن ولاية إنديانا ، وهناك عبروا النهر على طوافات ،

وبدأت أصعب مرحلة من رحلتهم الشاقة خلال تلك القفار ، إذ كانت العجلات تغرز حتى منتصفها فى الأرض الموحلة ، لدرجة أن الرحلة أخذت منهم أسبوعين كاملين ليصلوا هناك « كنا خلالها نشق طريقنا ، بالعربات خلال الغابات وعبر الأنهار حيث كنا نعسكر كلما أخذ منا التعب ، وكانت الأنهار العذراء تسير فى تلك الأنحاء المقفرة غير المأمونة ، حتى أننا لم نشاهد على طول المسافة أى أثر لجسر بنته يد إنسان . وكان كلب إيب الصغير ملازماً بإخلاص عربته طوال الطريق . لكن لنكولن افتقد كلبه فى إحدى المرات بعد عبور أحد الأنهار . وعند ما بحث عنه وجده فى الناحية الأخرى من النهر لا يستطيع العبور برغم شجاعته ، وذلك لشدة برودة المياه . وقال إيب « لم أستطع تحمل فكرة ترك هذا الكلب وحيداً ، فخلعت حذائى وشمرت بنطلونى وخضت فى المياه عائداً عبر النهر ، وعدت وتحت إبطى الكلب الذى كان يرتجف من شدة البرد . وشعرت بارتياح عميق حينما رأيت الكلب يقفز حولى مرحاً ، وكانت قفزات الكلب السعيدة هى مكافأتى عما تكبدته من مشقة » .

. . . . .

أكمل لنكولن عامه الحادى والعشرين فى أحـــد أيام شهر مارس عام ١٨٣٠ ، عند ما وصلت القافلة إلى الضفة الشمالية لنهر سنجامون عند التقاء منطقة الغابات بمنطقة الحشائش على بعد عشرة أميال من ديكاتور ، وسرعان ما ابتدأ رجال القافلة الخمسة فى بناء الكوخ الذى أمضى فيه أفراد القافلة الثلاثة عشر بقية ربيع وصيف وخريف عام ١٨٣٠ وشتاء عام ١٨٣١/٣٠ الذى لم يشاهدوا شتاءاً أشد منه برودة وقسوة .

وفى تلك البقعة اكتسب أبراهام لقبه العجيب « فالق ألواح الخشب » فلم يكتف لنكولن الصغير بفلق ألواح الخشب اللازمة لتسوير مزرعتهم

الجديدة البالغ مساحتها عشرة فدادين . بل اشتغل مع ابن عم والدته جون هانكس فى فلق أربعة آلاف لوح خشب للمستوطنين الآخرين . وعمل بنشاط كبير فى تنظيف وفلاحة الأرض البكر فى ربيع عام ١٨٢٨ ، مستعملا محراثه الكبير الذى كان يغوص فى أعماق الأرض ، فيقلبها رأساً على عقب . وكم كان سروره عندما نما القمح الذى زرعوه واخضر لونه ثم تحول إلى لون الذهب ووصل طوله إلى ركبة الإنسان فى يوليه وبلغ أقصى طوله ونضوجه فى سبتمبر .

وفى عيد الميلاد من عام ١٨٣٠ بدأ الثلج يتساقط واجتاحت الرياح الباردة أرض الحشائش فى قسوة وعنف حتى أن المستوطنين الذين كانت تفاجئهم هذه الرياح وهم على بعد مئات الأقدام فقط من أكواخهم كانوا كثيراً ما يضلون طريقهم إليها ويتجمدون فى الغابة حتى الموت وتبقى جثثهم هناك لتظهر مع السيول عند ذوبان الجليد فى الربيع .

ولأيام عديدة استمر الغضب الأبيض يسحق أمامه كل حدود إلينوى مزيلا كل آثار الطرق والسكك . وسرعان ما أصبح ارتفاع الجليد ثلاثة أقدام ، وتوقفت درجة الحرارة عند ١٢ درجة تحت الصفر . وكان يحكم بالفناء على أى حصان أو بقرة تخرج من حظيرتها . وهكذا قضى على قطعان من الغزلان بأكملها وجدت فيها الذئاب خير قوت تتغذى عليه ، ثم تجمد عدد كبير من الذئاب نفسها حتى الموت أيضاً . ولمدة تسعة أسابيع كاملة عاش أفراد القافلة فى داخل كوخ لنكولن على وجبات قليلة من خبز القمح وبعض الماء الذائب من الثلوج واستطاعوا أن يحافظوا على حياتهم . ولكن خارج الكوخ لم يكن هناك أى أثر للحياة فى ذلك العالم المقفر . ولم يجرؤ أحد بعد تلك السنة على أن يعود للتفكير فى هذه المنطقة من إلينوى إذ أن



« سنة الصقيع » لم تترك لأحد الأمل فى ذلك . ومع الأيام بدأ الدفء يعود والشمس تسطع من جديد فتذيب الثلوج .

كان كل الأفراد الذين عاشوا فى كوخ لنكولن تلك الفترة يتمنون أن يهربوا من ذلك المكان . ولم يمض زمن طويل حتى انتقل توم وسارة إلى موطنهم الجديد فى مقاطعة كولز . أما إيب الذى أعطى والده شهوراً من العمل المنهك والتى تزيد عما كان يتطلبه منه القانون ، فقد شعر أن الوقت قد حان ليتخذ طريقاً جديداً فى هـــذا العالم معتمداً على نفسه . وقد كان فى حاجة إلى وظيفة عندما واتته الفرصة فى عرض « دانتون أوفات » الرجل الحالم الفشار السكير ، أن يستأجره هو وابن زوجة أبيه وجون جنستون وجون هانكس ، ليأخذوا حمولة قارب من المنتجات إلى نيوأورليانز . واقترح عليهم أوفات أن يلحقوا به عند سبرنجفيلد بعد ذوبان الجليد ليبدأوا عملهم .

وتذكر لنكولن أنهم ما زالوا فى أول مارس عام ١٨٣١ وكانت البلاد ما زالت غارقة فى الفيضانات ، وكان السفر على اليابسة من المستحيلات ، لذلك اشترى هؤلاء الشبان زورقاً كبيراً وأبحروا فى نهر سنجامون ، وكانت هذه هى أول رحلة لهم فى هذه المقاطعة .

ولما قتشروا فى سبرنجفيلد على رجل أعمالهم المغامر وجدوه فى فندق يحتسى الخمر ، ولم يكن معه قارب البضاعة المتفق عليه . فكان عليهم أن يبنوا هذا القارب ويبحروا به أيضاً إذا أرادوا الوصول بالبضائع إلى نيو أورليانز لذلك كان عليهم أن يعملوا عند أوفات بأجر قدره ١٢ دولاراً لكل منهم لقطع الاخشاب من الغابات وبناء القارب على ضفاف النهر فى بلدة سنجامون . وأظهر لنكولن مهارته فى قيادة فريق النجارين وفى الطهو لهم . واستغرق

منهم بناء ذلك القارب الذى يبلغ طوله ثمانين قدماً ، وعرضه ثمانية عشر قدماً ، نحو شهر من العمل الشاق . وما أن انتهوا من صنعه حتى حملوه بالحبوب والبراميل المليئة باللحم المقدد ، ووجدوا صعوبة كبيرة فى تحميله بثلاثين خنزيراً لم تكن ترغب فى السفر . وأخذ كل ذلك بالطبع وقتاً طويلا ، انحسر النهر خلالها عن القارب وأصبح المشروع كله ميئوساً منه عندما جنح المركب بجوار سد طاحونة رتلدج .

حدث هذا فى قرية (نيو سالم) التى أمضى بها لنكولن ست سنوات لا تنسى من عمره . ويجتذب منظر إيب سكان قرية «نيو سالم» فيتجمعون على شاطىء النهر يشاهدون القارب المحمل وهو يتأرجح بخطورة على السد ، وكان يتولى مسئولية إنقاذه من ذلك الموقف شاب فى الثالثة والعشرين من عمره . يلبس بنطلوناً أزرق ضيقاً وقيصاً مخططاً من القطن وقبعة من جلد الغزال ، وكان يخوض فى المياه حافى القدمين ، يفتش عن المكان الذى يدخل فيه الماء من مؤخر القارب الذى كانت مقدمته ترتفع إلى أعلى . ويذكرون هانكس عن هذه المغامرة أنهم دحرجوا البراميل إلى الأمام وصنعوا فتحة فى مؤخرة القارب الذى كان يرقد فوق السد . وهكذا نزح الماء من القارب وأنقذ الموقف . وكان صاحب الفضل فى ذلك إيب لنكولن إذ أنه هو الذى وضع الخطة وهو الذى اقترض المثقاب الذى صنع به الثقب فى القارب ونزح الماء منه ، وبعد ذلك أعاد إغلاقه . وأتم لنكولن كل ذلك والحشد الغفير على الشاطىء يراقبه ، هؤلاء الذين خرج منهم بعد ذلك أشخاص تركوا أثراً فى حياة لنكولن ، منهم منتور جراهام الذى ساعده بعد ذلك فى تعلم فن السباحة ، وجاك أرمسترونج بطل المصارعة فى تلك الناحية الذى انتصر عليه لنكولن فى إحدى المباريات وأصبح بعد ذلك أخلص أصدقائه وأكبر مشجعيه ، وأيضاً جيمس رتلدج الشريك فى طاحونة رتلدج ووالد آن رتلدج أجمل فتيات البلدة . وجاك كاسو

الذى كان يحب الشرب وصيد السمك وقراءة كتب شكسبير ، وروبرت برنز الذى عرف لنكولن بكثير من الكتب القيمة .

وكان منهم أيضاً بولنج جرين المرح الذى كان يزن ٢٤٠ رطلا والذى أصبح بالرغم من إعتناقه مذهباً سياسياً مخالفاً لمذهب لنكولن أكثر الجميع تشجيعاً له ـ كل هؤلاء وكثير من أبناء البلدة كانوا يشاهدون بإعجاب القبطان الصغير وهو ينقذ الموقف عندما اصطدم قاربه فى السد .

ومهارة لنكولن أكسبته أيضاً إعجاب رئيسه «دنتون أوفات» الذى أحبه ووثق أن من الممكن أن يستفيد منه ،وكتب معه عقداً حين عادوا من نيو أورليانز ليعمل كاتباً عنده ، وأعطاه بعض المسئولية فى إدارة مخزنه فى بلدة (نيو سالم) .

واستمر جون جونستون وجون هانكس وإب لنكولن ودانتون أوفات منحدرين فى نهر سانجامون المتعرج الصعب الملاحة حتى وصلوا إلى نهر إلينوى ومنه إلى نهر المسيسبى حيث تخلف جون هانكس فى بلدة سانت لويس ولم يتابع الرحلة معهم إلى نيوأورليانز .

ليست هـــذه الحادثة بذات بال إلا من زاوية واحدة ، فقد ذكر هانكس بعد ذلك أن أبراهام لنكولن شاهد فتاة خلابة جميلة تباع فى سوق الرقيق فى نيو أورليانز مما أثر فى لنكولن تأثيراً كبيراً حتى إنه عاهد نفسه إذا أعطى الفرصة لضرب تجارة الرقيق فإنه سينتهز الفرصة ويضرب بشدة.

ومما لاشك فيه أن لنكولن كان سيتألم لرؤية سوق تجارة الرقيق ، وأن مثل هذه الحادثة قد فتحت عينيه أثناء رحلته إلى نيوأورليانز — ولو لم يكن جون هانكس مع لنكولن فى ذلك الميناء الجنوبى لما كان

لشهادته هذه القيمة الواضحة . ولم يستطع لنكولن أن يجاهر برأيه علانية في الرقيق إلا بعد ذلك بسنوات .

وعندما عاد إيب إلى موطنه في إلينوى بعد انتهاء رحلته الثانية في نيو آورليانز شق طريقه إلى بلدة (نيو سالم) . وكم كان رئيس الولايات المتحدة المقبل قانعاً بوظيفة كاتب في مخزن خشبي في قرية لايتعدى عدد سكانها مائة مستوطن !

الفصل السابع

قرية "نيوتسالم" وحرب الصقر الأسود

« ووصلت إلى قرية « نيو سالم ».. حيث اشتغلت هناك كاتباً فى مخزن ..
وبعد أن نشبت حرب الصقر الأسود انتخبونى قائداً لفرقة من المتطوعين .
وبهذا الفوز شعرت بسعادة لم أشعر بها من قبل .. »

أ . لنكولن

اعتبر إيب لنكولن نفسه عندما وصل إلى قرية (نيو سالم) فى أواخر يوليو ١٨٣١ كأنه قطعة من الخشب منساقة مع التيار لا يعرف له طريقاً . ولم يكن يتقن أى عمل سوى القليل الذى تعلمه عن الزراعة والنجارة وقيادة القوارب . وكان مازال بدون هدف محدد ، بدون طموح مركز أو موهبة محددة. ولكنه بعد أن ترك تلك القرية بعد ذلك الوقت بستة أعوام ليستعد لممارسة القانون كمحام شاب ناجح ،كان قد بدأ طريقه نحو هدفه العظيم . ولكننا بذكر هذه التفاصيل نسبق الحوادث قبل وقوعها .

بعد وصول لنكولن واستقراره بقليل بدأت انتخابات أغسطس . ولأول مرة باشر لنكولن حق الانتخاب . وكان فى تلك القرية أثناء ساعات الطعام يسلى الموجودين بنكاته وقصصه الغريبة التى أثارت انتباه كل الموجودين، وهكذا أصبح هذا الشخص الطويل الودود محبوباً من جيرانه الجدد .

واستفاد لنكولن من الأسابيع العديدة التى كان ينتظر فيها وصول البضائع التى وعده بها دانتون أوفات) ، للمخزن الموجود على شاطىء

النهر فى التعرف على القريه الجديده وسكانها . وكان جيمس رتلدج وجون كامرون قد استقر فى القرية قبله بعامين وأقاما فيها الطاحونة الوحيدة . وامتلأ أحد جانبى شارع القرية الوحيد بحوالى اثنى عشر كوخاً تموج بسكانها من الرجال والنساء والأطفال ، وسرعان ما أصبح لهذه القرية حداد ، وصانع أحذية ، وصانع براميل ، وتاجر صوف ، وطبيبان لتجبير العظام . واجتذبت حانة وليم كلارى عدداً من المستوطنين لا يقل عن العدد الذى اجتذبته الصلوات التى كان يقيمهـــا المبشرون النظاميون والعمدانيون والمشيخيون . ولكن الحانة هيأت كذلك للشباب حالة نفسية لمقاطعة هذه الصلوات .

وما أن وصل دانتون أوفات إلى (نيو سالم) بالبضائع ، حتى كان لنكولن على صلة طيبة بجميع القرويين . وبقى أمامه أن يكسب احترام أبناء (جروف) الشباب الذين كانوا يأتون إلى القرية فى جماعة مساء كل سبت ، مندفعين كأنهم الهنود ، يشربون استعداداً لقتال كل من يتصدى لهم . وكانت حانة كلارى التى تبعد مسافة ثلاثين خطوة من مخزن دانتون أوفات هى مركز التجمع فى (نيو سالم) لهذه الجماعة التى كانت تتنافس متسابقة بعنف إما على ظهور الخيل وإما على الأقدام . أو كانوا يظهرون براعتهم فى الوثب ورمى المطرقة أو المصارعة من أجل حب القتال وحسب .

كان أوفات رجلا قصيراً محباً للزهو ، ولم يكن ليتحمل دقيقتين فى المشاجرة مع أحد أبناء كلارى جروف . لكنه كان يتفاخر دائماً بأن الكاتب الذى يعمل عنده وهو إيب لنكولن يستطيع أن يهزم أيا منهم فى مبارزة للمصارعة ، حتى إنه تراهن مع أحدهم بخمسة دولارات ليثبت صحة مايقول . وما أن عرفت قريه نيو سالم بأن جاك أرمسترونج بطل أبناء

جروف ، الذى كان معروفاً بأنه أحسن مقاتل ومصارع فى كل تلك المنطقة سوف يتصارع مع عملاقهم الجديد إيب لنكولن ، حتى ابتدأ كل من بالقرية فى المراهنة على من منهما سوف يكتسب الصراع .

وتمت هذه المصارعة المشهورة مساء يوم سبت وهى التى كتبت فيما بعد نصراً سياسياً للنكولن . ففى حلقة من المشاهدين المتشوقين لرؤية المصارعة ، تلاطم جاك وإيب وتماسكا كل يبحث عن نقطة الضعف فى زميله . ومع أن جاك كان أقصر من إيب إلا أنه كان مفتول العضلات ، وكانت بنيته قوية كالثور ، وعضلات كتفيه وفخذيه تلمع تحت أشعة الشمس . وكانت عضلات لنكولن قوية كالعتلة لكنه كان يعلم أنه يواجه خصماً قوياً أيضاً .

واختلفت الروايات فى كيفية انتهاء المصارعة ،ولكنها أجمعت كلها على أن إيب استطاع بعد صراع عنيف أن يوقع جاك بكل جدارة . وما ان فعل ذلك حتى التف حوله كل جماعة كلارى جروف ، فأسند إيب ظهره إلى حائط لتتاح له الفرصة لملاقاتهم جميعاً واحداً واحداً . لكن أرمسترونج الذى أثبت أنه رجل رياضى نهض من الأرض ودفع رفاقه جانباً وسلم على لنكولن بيده ، وأصبح مع زوجته حنا أصدقاء لنكولن مدى الحياة ومن أكبر مشجعيه السياسيين . ورد لهم لنكولن هذا الجميل بخدمات ما كانوا يحلمون بها . ولما استطاع لنكولن أن يثبت أنه يستطيع أن يتغلب على كل من بالقرية فى الجرى والقفز ورمى المطرقة ، بدأ الجميع يتقبلون قيادته بسهولة . وبالرغم من ذلك فإن أحداً لم يلاحظ عليه أنه كان يشرب أو يقامر أو يتباهى بقوته .

كان رجال مناطق الحدود يعجبون بالعقل كما يعجبون تماماً بالعضل . جد الرجال الستة المتعلمون فى تلك القرية عدة فضائل فى لنكولن إلى

جانب قواه الجثمانية . وتطوع المدرس منتورجراهام بسرور لمساعدة إيب في النحو والرياضيات . وحبب جاك كاسو ، الذى كان يكتسب معيشته من صيد السمك وإلقاء الشعر ، لنكولن فى روايات شكسبير وشعر روبرت بيرنز . ووجد لنكولن فرصته الأولى الجدية للخطابة فى الجمعية الأدبية المحلية . وكم أعجب جيمس رتلدج والدكتور فرانسيس رانييه بفصاحة لنكولن وبلاغته ، وتحققا من أن لنكولن الصغير يحتاج إلى قليل من التدريب والصقل لتنمية مواهبه، وليصبح متحدثاً بارعاً ومؤثراً .

وأثبت لنكولن فى مجال واحد فقط عدم كفايته إذ لم يستطع فى مخزن أوفات ان يثبت أنه رجل أعمال ناجح. حقيقة إن الناس أحبوه لدماثة خلقه ومودته وأمانته ، لكن لنكولن كان أكثر اهتماماً بقراءة الكتب وحكاية القصص أكثر من اهتمامه ببيع الملح والسكر والشاى.وسرعان ما يئس أوفات من نجاح بيع محتويات مخزنه وترك القرية بحثاً عن تجارة أخرى . وما أن جاء الربيع حتى أصبح لنكولن بدون عمل ثابت . وبناء على اكتساب لنكولن عدة صداقات خلال الشهور السبعة التى قضاها فى نيو سالم ، فقد اعلن بشكل ثقة فى التاسع من مارس عام ١٨٣٢ . أنه سوف يرشح نفسه فى الانتخابات القادمة لمجلس الولاية .

كتب لنكولن أول خطبة سياسية له بمساعدة منتور جراهام وآخرين . وبالرغم من قصرها إلا انها استحوذت على ناخبي مقاطعة سنجامون . وكان صريحاً فى مؤازرة هنرى كلي معارضاً لآندرو جاكسون الشهير . وبنى خطبته على حقائق من الواقع الحى الذى كان يحيط بالقرية ، فطالب بتخفيض نسبة الربح على القروض . وبالطبع كان معظم الناخبين مدنيين ، وطالب بإعطاء فرص أكبر للتعليم . ولم يكن هناك مدارس بالمعنى المفهوم ، وطالب

بتحسين المواصلات فى نهر سنجامون إذ كان يعتقد أن السفن من حمولة ٣٥ إلى ٤٠ طناً يمكنها أن تصل إلى فورك الجنوبية على نهر سنجامون . وأنهى خطبته الأولى بفقرة كسبت له تأييداً كبيراً . . فقد قال . .

« لقد ولدت و بقيت أعيش فى طرقات الحياة المتواضعه . . وإذا شاءت حكمة الشعب الطيب أن يبقيني بعيداً فإننى قد تعودت تحمل خيبة الآمال . . بدون ألم . . صديقكم المواطن . . أبراهام لنكولن . . »

وكأنما لتأكيد أهمية النقل النهرى الرخيص ، اهتمت قرية نيو سالم وكل القرى المحيطة بها بخبر وصول المركب البخارى « تالزمان » بقيادة القبطان فنسنت بو ج . وكانت تحمل بضائع من سانت لويس . ورست السفينة على شاطىء نهر سنجامون على بعد ستة أميال شمال بلدة سبرنجفيلد . وكانت الأجرة التى تقاضتها هذه السفينة هى ٣٧ سنتاً لكل مائة رطل . وكان هذا المبلغ يمثل نصف ما يكلفه النقل بالبر . وتخيل المزارعون مقدار الرخاء الذى سيأتيهم إذا ما استطاعوا شحن بضائعهم ومنتجاتهم بهذا الرخص من إلينوى وإليها .

ولقد كان الفضل لإيب لنكولن مرشح المجلس التشريعى بالبلدة فى أن يقود فريقاً من الرجال، يتسلحون بالعصى والفؤوس الطويلة ويسيرون أمام السفينة يشذبون الطريق من الأغصان المتدلية . وكان من بين المشاهدين لهذا النشاط على الشاطىء الشاب بيلى هرندون البالغ من العمر ١٣ سنة ، والذى أصبح فيما بعد شريكه فى العمل بالقانون وكاتب قصة حياته والمعجب به كبطل . ولم ينس (هرندون) أبداً قيادة لنكولن للرجال الذين كانوا يفتحون الطريق أمام (تالزمان) بفؤوسهم .

وما أن وصلت السفينة تالزمان حتى قوبل طاقم السفينه بعاصفة من الترحيب . وأفرغت شحنة السفينة، وأكملت سيرها منحدرة فى النهر . ولكن لسوء الحظ لم يكن النهر عميقاً . واستطاع لنكولن الذى كان مساعداً للقبطان أن ينجح فى العودة سالماً بالمركب بعد أن يتكبد الكثير من المشاق.

وخبت الإثارة التى كانت قد صاحبت وصول السفينة تالزمان . وكان السبب فى هذه المرة موجة من الخوف والهلع اكتسحت كل تلك المنطقة . فقد بدأ الصقر الأسود ، الزعيم المقدس لقبيلتى الساك والفيكر ، فى تجميع قواته التى بلغت نحو أربعمائة محارب هندى مسلح ، عبر بهم نهر المسيسبى وأصبحوا يهددون المستوطنين البيض لاسترداد حقول القمح التى كانت تتبعهم من قبل . وقد يشعر الإنسان بالشفقة من أجل هذا القائد الشجاع وقبيلته التى حرمت الغنى والحقول التى أعطت شعبه الحبوب لمدة طويلة من قبل . فلقد اعتقد الصقر الأسود من خلال خبرته أنه لا يمكن بيع الأرض إذ أنها هبة الروح العظيمة لأولاده ليعيشوا على إنتاجها . وماداموا يعملون ويزرعون فى هذه الأرض فإن لهم حقاً فيها . وفى اعتقادهم أن الشيء الذى لا يمكن حمله لا يمكن بيعه . لكن الصقر الأسود بخرقه المعاهدة التى كان قد وقعها من قبل ، ومهما كانت عدالة مطالبه فإنه أصبح السبب فى موت المستوطنين بالرصاص وجز رؤوسهم . ومن مناطق المستوطنين فى شمال إلينوى جاء الرسل فى طلب المساعدات الحربية بإلحاح . وأذاع محافظ إلينوى نداءاً لجميع المتطوعين الذين سرعان ما تجمعوا وانتخبوا لنكولن قائداً لفرقته ، بمساعدة نفوذ أولاد كلارى جروف الذين أصبحوا من أشد المعجبين به . وعين إيب جاك أرمسترونج باشجاويشاً لفرقته . وكم حكى لنكولن ورفاقه الحكايات المضحكة عن طبيعة قياداتهم غير العسكرية . وكان رجاله متطوعين ذوى طبيعة فجة غير حليقى الذقون ، ومن الصعب



تعويدهم على النظام . واستطاع لنكولن المسيطر عليهم أن يؤكد لهم أنه سيقاتل شخصياً كل رجل يخرج عن طوعه ، ولم يكن هو ليعرف الكثير عن المصطلحات الحربية عند ما اقتربت فرقته من بوابة ضيقة لم يستطع أن يفكر فى الأوامر التى يمكن أن يعطيها لهم للتقدم عبرها سوى أن يصرخ فيهم قائلا : « قفوا . سوف تنفض هذه الفرقة لمدة دقيقتين رتب أفرادها العسكرية حتى تجتمع مرة أخرى فى الناحية الثانية من البوابة » .

لم يكن لنكولن ولا أى واحد من فرقته قد رأوا محاربى الصقر الأسود أو سمعوا أصوات طلقات البنادق طلباً للحرب . ولقد أنقذ إيب ذات مرة حياة هندى طاعن فى السن كان قد أتى المعسكر بتصريح المرور . لكنه كان فى خطر من أن يطلق الجنود عليه النار . ومرة أخرى ساعد لنكولن وفرقته فى دفن خمسة من الرجال المليشيا كانوا قد قتلوا فى موقعة كاوج جروف . ولن ينسى لنكولن كيف كان منظر هؤلاء الموتى وفى رأس كل منهم بقعة حمراء مستديرة مكان أثر جز فروة الرأس . كان المنظر مخيفاً واشعة الشمس الحمراء تغطى كل شىء ، وكان أحدهم يلبس بنطلوناً من جلد الغزال .

وفى ذات الوقت كان الصقر الأسود قد وقع فى كمين وانهزم ، فأسر وسيق إلى واشنطن العاصمة حيث وقف منتصب القامة مرفوع الرأس أمام الرئيس اندرو جاكسون وقال له « أنا زعيم مثلك . لقد حملت بلطتى لأثأر من الإهانات التى لم يعد شعبى يحتملها . ولو طال صبرى لقال شعبى إن الصقر الأسود أصبح مسناً وأنه لم يعد من قبيلة السالك » .

وقد سرق حصان لنكولن منه أثناء إقامته بمعسكره فى جنوب وسكنسون ، وقد كان عليه أن يذهب إلى قرية نيوسالم إما على الأقدام

وإما فى زورق . وقد هزأ أبراهام لنكولن بعد ذلك بسنوات ، فى إحدى خطبه فى مجلس الشيوخ ، من لويس كاس مرشح الحزب الديمقراطى لرئاسة الجمهورية ، وسخر من السجل العسكرى الخاص به بيد أن تاريخ لنكولن العسكرى فى قرية نيو سالم ، نظراً لقصر مدته ، لم يساعده كثيراً فى حملته الانتخابية للمجلس التشريعى للمقاطعة . ومع ما تبقى من الوقت القصير ، زار إيب كل البلاد يتحدث إلى المزارعين ويساعدهم فى جنى محصولهم من الحبوب ويخطب فيهم أحياناً ، وفى بابسفيل حينما كان يخطب فى مزاد علنى لبيع المواشى ، اضطر لنكولن إلى أن يقطع خطبته ليخرج من الجمهور أحد المشاغبين . ثم عاد إلى المنصة كأن شيئاً لم يحدث . كانت خطبته القصيرة التى ألقاها ذلك الوقت مثلا يحتذى به السياسيون وجديرة بدراستهم . قال :

« أيها المواطنون . أنا أعتقد أنكم تعرفوننى جميعاً . أنا أبرهام لنكولن البسيط . ولقد طلب منى كثير من الأصدقاء أن أرشح نفسى لعضوية مجلس الولاية . وبرنامجى السياسى قصير وهام . فأنا فى جانب إنشاء بنك أهلى ، وإصلاح النظام الداخلى وفرض تعريفة عالية لحماية منتجاتنا . هذا هو شعورى نحوكم . وهذه هى المبادىء السياسية التى أعتنقها . فإذا قمتم بانتخابى ، كنت لكم من الشاكرين . . وإذا لم تنتخبونى كنت أيضاً شاكراً » .

سقط لنكولن فى هذه الانتخابات . وكانت هى المرة الوحيدة التى يسقط فيها لنكولن فى انتخابات مباشرة يقوم بها الشعب . لكنه فاز بـ ٢٧٧ صوتاً من أصوات دائرته ضد سبعة فقط . وأصبح لنكولن فعلا أشهر رجل فى قرية نيوسالم بأكملها .

شعر إيب لنكولن المتواضع بالسعادة تغمر قلبه لأنه فى صيف عام ١٨٣٢ عرف مقدار حب الشعب له .

الفصل الثامن

أصحاب المهن المختلفة

« تلاشى المتجر فى طرفة عين . »

أ . لنكولن

عمل لنكولن خلال السنوات الخمس التالية صاحب حانوت ورئيساً لمكتب البريد ، ومساحاً ومقرراً لاجتماعات مجلس الولاية .. ثم رخص له بالعمل فى المحاماة . ولقد نجح فى جميع هذه الأعمال باستثناء أولها . وعلى كل حال فقد كان سىء الحظ فيما يتعلق بأعمال الحانوت حتى إنه رغم بدئه مفلساً غادر قرية (نيو سالم) إلى سبرنجفيلد عام ١٨٣٧ وهو مدين بما يقرب من الألف دولار .

من المحتمل أن إيب تذكر المركز المحترم الذى كان يشغله جيمس جنترى صاحب المتجر فى إنديانا ، فعل على أن يصبح مثله تاجراً .. ومن المؤكد أنه كان يستمتع وهو خلف طاولة المبيع باتصالاته المستمرة مع جيرانه ، بفرصة سرد الحكايات عليهم . وفوق كل هذا فقد كانت هناك فرصته الكبرى فى تمتعه بالرقاد على طاولة البيع وقدميه تستندان على الحائط فوق مستوى رأسه يقرأ كل كتاب يقع بين يديه الضخمتين الخشنتين من جراء الأعمال اليدوية التى مارسها .

وقد ذكر لنكولن فيما بعد أنه كان شغوفاً بالبقاء فى قرية نيو سالم بين

أصدقائه الذين عاملوه « بمنتهى الكرم والنبل » ، ولقد فكر أن يتعلم مهنة الحدادة ، كما ذهب تفكيره إلى دراسة القانون مع علمه بأنه لن ينجح فى ذلك دون دراسة أفضل .

وكانت دهشته — وقت أن كان بلا عمل وبحاجة إلى إبقاء الروح والجسد معاً على قيد الحياة — عندما عرض رجل أن يبيع — ولقد باع فعلا إلى لنكولن وإلى رجل فقير آخر مثله — كمية من البضائع القديمة على الحساب. وافتتحا بهذا عملهما كتاجرين.. وطبعاً لم يفعلا شيئاً سوى إمعانهما فى الديون .

ومن كثرة ترديد قصة المتجر الذى « تلاشى فى طرفة عين » ، أصبحت تلك القصة تبدو كأسطورة . لكنها قصة واقعة . فقد انكب شريكه وليم ف . بيرى على عب الويسكى من البراميل ، فى حين انغمس لنكولن إلى أذنيه فى قراءة الكتب ، وبذا توصل الاثنان إلى إفلاس المتجر فى بضعة أشهر . غير أن إيب — الرجل الأعين — الذى كان يفضل السير أميالا على ألا تزداد عبثاً بسنتيمات قليلة — وجد نفسه مثقلا بالديون حينما أفلس المتجر .

وبعد عدة سنوات من العمل الشاق المضنى سدد إيب كل تلك الديون .

وكانت لوحة الإعلانات فى حانة (راتلدج) قبلة لنكولن لرغبته فى الحصول على أى نوع من العمل المؤقت ، كشق القضبان أو درس القمح أو كاتب بالمتجر الجديد الذى كان يديره ا . ى . أليس ، لكن لنكولن عين فى السابع من مايو ١٨٣٣ رئيساً لمكتب البريد فى قرية نيو سالم ؛ وهى وظيفة لجزء من الوقت ربما من خمسين إلى خمسة وسبعين دولاراً سنوياً . غير أنها هيأت له أيضاً ميزة الاطلاع على جميع الجرائد التى كانت ترسل بالبريد إلى المشتركين بالريم .

وهناك فى ولاية إنديانا اشتهر إيب بأنه (رجل الأخبار) لتلاوته موجزاً لكل الأنباء التى كان يتمكن من تذكرها من الجرائد التى كان يقرأها بشغف. واشغفه بجمع المعلومات عن العالم والشئون الدولية والمقالات السياسية، واصل لنكولن استيعابه لما كانت تحويه مختلف الجرائد مثل جريدة (ميسورى ريبابليكان) فى ولاية سانت لميس، وجريدة (ميسيفيل) وجريدة (ناشينال انتليجنسر) فى واشنطن، وجريدة (سانجامو) فى سبرنجفيلد وكان غالباً مايرى فى قرية نيو سالم وسط مجموعة من الناس يقرأ لهم بصوت مرتفع إحـــدى الجرائد التى لم يتسلمها صاحبها بعد من مكتب البريد.

كان يبهج لنكولن أن يقوم بتوزيع الخطابات وهو فى طريقه كلما طاب مزاجه لذلك. وكان يضعها فى قبعته التى أصبحت على مر السنين حقيبة ملائمة للمذكرات القانونية والمستندات ومختلف المراسلات، وباختصار كل شىء يود صاحب القبعة أن يكون فى متناول يده. وكان على إيب كلما رفع قبعته لتحية سيده أن يحرص على ألا يكون قد أسقط منها شيئاً من الورق.

ومن الواضح أن أبراهام لنكولن الشاب لم يدخر ثروة فى قرية نيوسالم، إذا ما انصب حديثنا عن المال فقط. لكنه كان يدخل ثروات أخرى كلها فكرية.. قواعد اللغة والرياضيات. وفى مدة وجيزة قواعد المساحة ومبادىء القانون.

ويكاد المرء يعتقد فى قرية نيو سالم أنها قد خلقت بطريقة سحرية لغرض واحد هو مساعدة أبراهام لنكولن ليتطور إلى الرجل الذى صار إليه أخيراً. تلك المدينة الصغيرة التى تأسست قبل وصول لنكولن إليها بعامين فقط، واختفت بعد مغادرته لها بعامين من الخريطة بطريقة مؤثرة.

وكأنما كان ذلك إثر إشارة من عصا بعض السحرة . فلقد ظهرت أكواخ خشبية على أعلى (سنجامون) وكأنما استدعت إشارة من عصا السحرية مجموعة من الممثلين من خلال الهواء الرقيق (كما فى مسرحية « العاصفة » لشكسبير — التى قد يكون جاك كيلسو قد قرأها على لنكولن فى بعض الأمسيات الساكنة) .

وبينما كان هؤلاء يسكنون فى أكواخهم بقرية نيو سالم ، فإن هذه الشخصيات فى درامة لنكولن كانت من المؤكد حقيقية . وغالباً مالعبت دوراً هاماً فى تطوير حياة إيب . فمثلا كان مساح قرية سانجامون وهو جون كالهون من سبرنجفيلد ، هو الذى عرض على لنكولن وظيفة مساعد له فى إقامة حدود المزارع ، وإنشاء المدن ومسح الطرق الجديدة . ولم يكن إيب يدرك شيئاً عن هذه المهنة . وعلى ذلك فقــد ذهب ليقيم مع المدرس منتور جراهام الذى كان يجلس مع لنكولن كل ليلة شارحاً له طريقه فلنت فى الهندسة .. ليبحثا معاً دراسة (جيبسون) المساحة العملية . واشتكت ساره زوجة جراهام أن زوجها ولنكولن يتحدثان بجوار المدفأة تاركين إياها مستيقظة حتى ساعة متأخرة بعد منتصف الليل .

وبعد بضع سنوات كان جراهام يشيد بأنه خلال حياته الطويلة كمدرس لم يكتشف أحداً يتعلم فى سرعة لنكولن « المولع بالبحث ، والشاب المطلع إلى الأمام سعياً وراء المعرفة والآداب ، متفوقاً على أى شخص آخر من بين الآلاف الخمسة الذين قمت بتعليمهم بالمدارس » .

وسرعان ما تمكن لنكولن خلال الضباب الكثيف ، مستعيناً بالبوصلة والسلاسل من اختراق النباتات المتشابكة واللبلاب السام ، لإزالة الأعشاب البرية ، وإزاحة

الكتل الخشبية، والخوض فى المستنقعات أثناء تخطيطه للمزارع والطرق فى أواسط ولاية إلينوى. وكان يتقاضى دولارين وخمسين سنتاً فى مقابل مسح قطاع (حوالى مائة وستين فداناً) بالإضافة إلى دولارين يوماً للمصاريف التى كان يتكبدها . لكنه لم يكن فى أغلب عملياته يتقاضى أتعابه نقداً . ففى بدء أعماله كانت مكافآنه عن إحداها وعلين أو على الأصح جلديهما اللذين قامت حنا أرمسترونج زوجة جاك باستعمالهما فى ترقيع سراويله لنقيها شر التمزق من الأشواك وفروع الأشجار الجافة التى كانت تحتك به أثناء قيامه بالعمل.

ولم تكن أى من هذه الوظائف أوكلها مجتمعة معاً لتكفى لنكولن فى حياته ولتسدد ديونه أيضاً . وإمعاناً فى البؤس الذى كان يلاحقه، تم الحجز على حصانه والسرج واللجام وآلات المساحة بواسطة أحد الدائنين وبيعت فى المزاد العلنى. ولحسن الحظ رسا المزاد على صديق فأعادها إلى إيب دلالة على إيمانه بالمساح الشاب المكافح .

اعتزم لنكولن فى بدية عام ١٨٣٤ مرة أخرى، ترشيح نفسه للمجلس التشريعى للولاية . وانتخب بمساعدة كل من الديموقراطيين والأحرار .وكان باولنج جرين مؤيده الديموقراطى بينما كان جون پ. ستيوارت المحام الشهير فى سبرنجفيلد ومرشح الأحرار فى الجمعية العمومية يدير الاستراتيجية فى حزب لنكولن الخاص . وأصبح ستيوارت كذلك متولياً لأمور لنكولن فى المهام الأخرى ، يوجهه للسير فى أصعب الخبايا فى سياسة الدولة عندما انعقدت الجمعية فى فانداليا فى ديسمبر التالى، ويحث لنكولن على قراءة القانون معيراً إياه الكتب اللازمة . وانتهى من ذلك بأن جعل من إيب شريكاً له فى المحاماة بعد مرور سنوات قليلة .

ومنذ ذلك الحين، بالإضافة إلى جميع دراساته الأخرى ، صار لنكولن

يقرأ تعليقات (بلاكستون) ومرافعات (شيتى)، محاولا استيعابها كدعامتين كلاسيكيتين فى التدريبات القانونية .

واستمر إيب فى غضون خريف سنة ١٨٣٤ فى مسح الأرض وقبول وظائف شاذة. ثم اقترض مائتى دولار من صديقه كدلمان سموت ، واشترى بستين دولاراً منها أول بدلة حاكمها له ترزى واستعد لإظهار نفسه داخل دار الجمعية العمومية فى فانداليا ثم فى عاصمة ولاية إلينوى .

وفى تلك الأيام — فى أواخر نوفمبر والطرق مليئة بالأوحال — حينما كانت عربة المسافرين الملطخة بالأوحال تتأرجح عبر مروج قرية فانداليا النائية على طريق كامبرلاند غير الممهد ، لم يكن هناك مايثير اهتمام المشاهد سوى مبنى المجلس التشريعى ذى الطابقين . ووصول أعضاء المجلس التشريعى وعائلاتهم بسبب انعقاد الدورة الحالية للمجلس . أما بالنسبة إلى لنكولن الذى لحق بستيوارت إلى الحانة حيث قررا الإقامة بها فكانت هذه المدينة ذات الستمائة نسمة مجالا للفرص المتألقة .

ولا جدوى من تتبع هذا العضو الجديد فى مجلس الولاية من مقاطعة سانجامون خلال الدورات الأربع التى اشترك فيها بالمجلس التشريعى لولاية إلينوى. ففى الحقيقة كان إيب يتعلم مبادىء السياسة فى مدرسة شاقة . ولكن مايمكن أن يحكم به مراقب غير منصف هو أن يقول إن ما أحرزه لنكولن من تقدم هو انتقاله من « شق » الأخشاب إلى « دحرجتها » . ودحرجة الأخشاب فى عز السياسة الأمريكية معناها رد الجميل . فهو يصوت لمسألة يبغى تمريرها سياسى آخر فى مقابل مايسديه له هذا السياسى من معروف مماثل . ومن سوء الطالع أن السياسيين فى هذه الأيام يقدمون على نفس هذه الاتفاقات مثلما كان الحال فى عهد لنكولن .



وخلال السنوات الثمان التى قضاها إيب عضواً فى المجلس التشريعى وصل إلى مركز « زعيم الأقلية » مسيطراً على سياسة ولايته . وغالباً ما كان قادراً على حيازة الضغط الشديد للتأثير على أعضاء المجلس الآخرين حينما كان يرغب فى تمرير تشريع ما .

وولاية إلينوى مثل أى ولاية أخرى فى ذلك الوقت كانت تقدم فى هوس على الإصلاحات الداخلية . فقد كانت الطرق والقنوات وخطوط السكك الحديدية مطلوبة بإلحاح داخل الحدود كلها . ولكن فى سنة كانت فيها ميزانية الخزائن فى ولاية إلينوى ألفى دولار فإن أقصى حالات الجنون تبدو فى التصويت على مشروعات القنوات والمواصلات الأخرى التى تتكلف الملايين من الدولارات .

وفى خلال السنة الثالثة لعضوية لنكولن ، استغل كل قواه السياسية الخارقة لتكتيل الجهود من أجل إنشاء الطرق الحديدية التى كانت تحتاجها كل قرية من قرى ولاية إلينوى .

ولكونه رئيساً على « التسعة الطوال » من قرية سانجامون (سبعة من أعضاء المجلس التشريعى وعضوان من مجلس الشيوخ بالولاية ، طول قامة كل منهم ستة أقدام) وكان لنكولن أطول من بالمجموعة ، انتفخ بتماثل طول وقوة هؤلاء الرجال الكبار للسيطرة بقوة على المجلس . فقد طالب الديموقراطيون بوسائل المواصلات الجديدة ، وطالب لنكولن وأصدقاؤه بانتقال العاصمة من فانداليا إلى سبرنجفيلد . وكانت الدحرجة دائماً تعطى النتائج المرغوبة . فقد تم التصويت على الطرق والقنوات والسكك الحديدية . وكذلك تغير موقع عاصمة الولاية . واحتفلت سبرنجفيلد بانتصارها العظيم على فانداليا . واحتفى هناك بلنكولن الذى عمل كثيراً لتحقيق غاية سبرنجفيلد . كما لو كان بطلا .

تعرف لنكولن أثناء وجوده بفانداليا برجلين أصبحا فيما بعد من خصومه السياسيين . أحدهما كان جيمس شيلدز ، الذى تحدى لنكولن ذات يوم للمبارزة . بينما كان الآخر هو ستيفن أ . دجلاس ، وكان قصيراً مكتنزاً شرساً ولماحاً فى نفس الوقت . لم يكن مقبولا البتة . وقد واجهه لنكولن فى سلسلة من المناقشات المشهورة فى أواخر عام ١٨٥٠ والتى كانت تدوى أنباءها عبر القارة كلها . . وفى مأدبة عشاء أقيمت فى إحدى الحانات راقب لنكولن شيلدز ودجلاس وهما يرقصان الفالس فوق المنضدة الطويلة بين صيحات الساسة المشهورين . وفى اليوم التالى دفع شيلدز ستمائة دولار قيمة ماتهشم من أطباق وأوان زجاجية فى ذلك الوقت الذى كان يكفى منه ذلك المال لشراء مزرعة كبيرة وخصبة فى نفس الوقت .

وإذا كان لنكولن قد زاول السياسة « عملياً » . فلا يفهم من ذلك أنه لم يتشبث أيضاً بكثير من أحلامه ومثله العليا . فمع الإصلاحات الداخلية وإعادة عاصمة الولاية إلى مكانها ، وجد لنكولن الفرصة ليعبر جهراً عن آرائه فى الرق — وهى الآراء التى لم تتغير فى السنوات الأربع والعشرين التالية إلا قليلا . وقد جعل المجلس يدرك شعوره بأن الرق يقوم على الظلم . والسياسة الخاطئة ولكنه لم يناد بإلغاء الرق . ولم يكن يشعر بأن للحكومة الفيدرالية الحق فى التعرض للرق فى تلك الولايات التى كانت قد انتشرت فيها قبل ذلك ، ولكنه كان يدرك أن الكونجرس يمكنه إلغاءه فى مقاطعة كولومبيا .

وهكذا رغم حداثة سنه، بدأ لنكولن يعبر عن عقيدته بأنه لا يجب السماح مطلقاً لشر الرق أن يتفشى .

وعودة إلى قرية نيو سالم ، حيث كان لنكولن يقضى الأشهر بين دورات المجلس التشريعى للولاية ، كانت تعيش هناك فتاة زرقاء العينين ذات شعر أسود

مائل إلى الحمرة تدعى آن راتلدج ابنة جيمس راتلدج ، وهى التى كان من المقرر لها أن تتزوج ممن يدعى جون ماكنيل (وكان اسمه الحقيقى ماكنمارا) ، الذى رحل عام ١٨٣٢ إلى الجنوب ليرتب شئون أسرته . وكان من المعلوم أنه سوف يعود للزواج من آن بمجرد الانتهاء من مأموريته . ولكن مع مرور الوقت توقف ماكنمارا عن الكتابة إلى خطيبته ، وانقضت سنوات ثلاث طوال ، ولم يكن لأحد أن يلوم أياً من آن وإيب على اعتقادهما أن ماكنمارا قد غير رأيه .

ولكن هل تقدم لنكولن لخطبة آن ؟ وهل وافقت هى عليه ؟ وهل كانت وفاتها عام ١٨٣٥ ضربة قاضية إلى لنكولن حتى إنه أوشك فى وقت ما على أن يفقد عقله ؟

لقد رفض أقدر المؤرخين المعاصرين بلا استثناء تقريباً تصديق قصة هذا الغرام . ودليلها فى الواقع واه جداً . ما من أسطورة فى حيات لنكولن كلها ، لقيت شغف الجمهور المتزايد على تقبلها . وقد حفرت على شاهد قبر آن الخالى قصيدة شعرية وضعها إدجار لى ماسترز ، وهى أنشودة شجية مهداة إلى الفتاة التى عرفها لنكولن والتى ماتت فى ريعان شبابها :

من فؤادى . . . . تافهاً غير معروف
ارتجافات ألحان لا تموت
« بلا حقد تجاه أحد . . بالإحسان للجميع »
من فؤادى . . عفو الملايين نحو الملايين
وبوجه أمة . . . سخى أمين
يشرق بالعدل . بالصدق المبين

أنا ، آن راتلدج ، التى ترقد تحت الثرى

أحبها أبراهام لنكولن فى حياته ما انبرى

زفت إليه ، لا فى اتحـــاد

بل فى انفصـــال .

أينعى للنهاية يا أيتها الجمهورية

من ثرى صدرى .

من الذى يمكنه الآن أن يعرف ما كان يكمن فى قلبى شابين منذ عدة سنوات انقضت فى قرية كان لها أن تتلاشى مثل ضباب الصباح ؟ ربما كانت قصة آن راتلدج لم تخرج عن كونها إحدى تلك الحكايات العاطفية التى تبدأ بكان .. ياما كان .. ولكن .. أسوة بكثير من أساطير الحب المحزنة فقد صنعها التاريخ بأسلوبه الخاص .

ومهما كانت الحقائق ، فقد بدأت قرية نيوسالم حيناً من الوقت تفقد سحرها فى نظر أبراهام لنكولن . ففى إبريل عام ١٨٣٧ حينما كان إيب فى الثامنة والعشرين (وأمامه ثمانية وعشرين عاماً أخرى ليعيشها) نزح إلى سبرنجفيلد ليبدأ تدربه على القانون .

ترك خلفه ذكريات كثيرة عن المتجر الذى « تلاشى فى غمضة عين » ورئيس مكتب البريد ، وهى الذكريات التى هيأت له فرصة قراءة الجرائد المشوقة دائماً ، وشق القضبان ، ودرس القمح ومسح الأراضى . . ترك الذكريات عن الأحاديث الطلية الشيقة ، حول وهج المدفأة مع أصدقائه العديدين .. عن الكتب التى قرأها .. عن الأصوات التى كان يعطيها له جيرانه دائماً كلما رشح نفسه . . وعن فتاة كان قد عرفها وهى التى ترقد الآن تحت

ثرى المراعى .. وبعد عامين آخرين أصبحت نيوسالمقرية خيالية . وكما ردده بروسبيرو أحد أبطال روايات شاكسبير :

هاهم ممثلونـــا
كما أخبرتك .. كلهم أرواح
ذابوا فى الهواء . هواء رفيع تذروه الرياح .
هاقـد التصقنا
كالأحـلام التى بنيناها .....
وحياتنا القصيرة ذهبت حين نمناها ...

الفصل التاسع

الأيام الأولى في سبرنجفيلد

« لقد درست القانون ، ونزحت إلى سبرنجفيلد لممارسته »

أ . لنكولن

أصبح جو شواب . سبيد، وهو الشاب الوسيم والتاجر الناجح الكونتا كى النشأة ، بسرعة أفضل أصدقاء لنكولن . يتذكر إيب وصوله المتواضع إلى سبرنجفيلد ، حيث كان على رئيس المستقبل أن يقضى فيها الأربع والعشرين سنة القادمة . جاء إليها على حصان معار ، وكل ما يمتلكه فى الخرجين اللذين ألقاهما على ظهر الحصان وراءه . ويستفسر لنكولن عند دخوله متجر سبيد « عما يتكلفه فرش السرير المفرد » وحينما يحسبها سبيد يجدها تصل إلى ١٧ دولاراً . ويقول لنكولن إنه على الأرجح رخيص بما فيه الكفاية ، لكنه يضيف : . « رخيص على ماهو عليه ، فلا يوجد معى نقود للدفع . ولكن إذا ما أقرضتنى حتى عيد الميلاد ونجحت خبرتى هنا كمحام ، حينئذ سأدفع لك . وإذا فشلت فى ذلك ففى الغالب لن أدفع لك مطلقاً . »

اتخذ سبيد قراراً سريعاً عندما تأمل الرجل الطويل غير الوسيم والذى كان وجهه فى مخيلة الكثيرين أكثر كآبة لم يروا مثلها من قبل ، فقال للمحامى الشاب المكتئب الذى كان متكئاً على طاولة البيع .

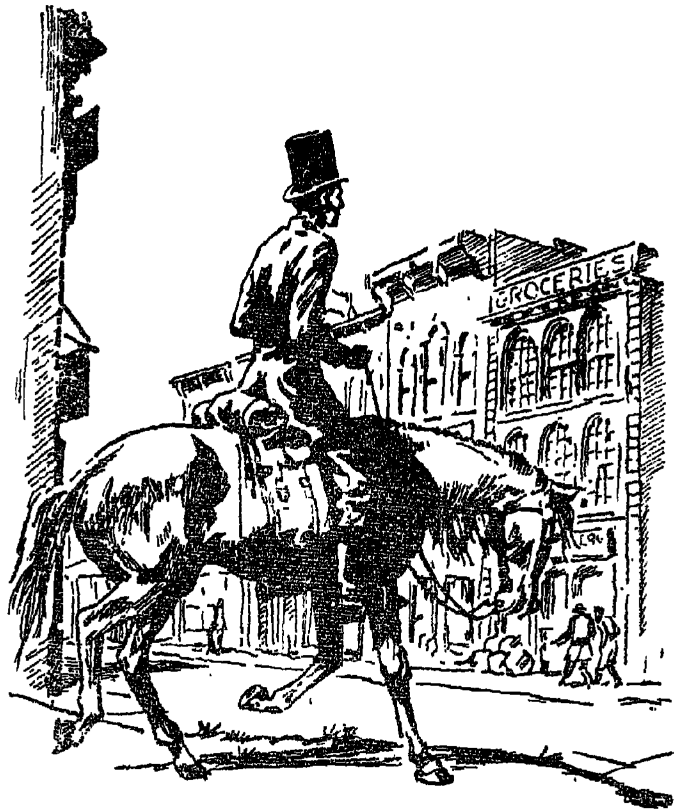
« لما كان مثل هذا الدين سيؤثر بشدة عليك ، فأعتقد أننى أستطيع أن أقترح خطة تتمكن بها من تحقيق هدفك دون تحمل أى دين . فلدى غرفة

واسعة جداً وسرير كبير يتسع لشخصين . . . وإننى أرحب بك تماماً إذا شاركتنى إياها إذا أردت .

وتساءل لنكولن « أين هى هـــذه الغرفة ؟ » فأجابه سبيد « فى الدور العلوى » . وأشار إلى درج يوصل إلى الطابق العلوى ، فحمل لنكولن الخرجين صاعداً الدرج كل سلمتين فى خطوة واحدة ، وعندما نزل مرة أخرى كان يبتسم فى ارتياح وقال « حسناً ياسبيد . لقد استرحت » .

وعلى الرغم من أن لنكولن ضمن شكواه من وحدته أول خطاب أرسله حال وصوله ، فإنه كان فى حالات كثيرة رجلا محظوظاً . فلم يهيىء كرم سبيد له البيت فحسب ، لكنه هيأ له أيضاً نادياً وداراً للندوات . وهناك فى حجرة واسعة خلف المتجر مجهزة بمدفأة كان يجتمع فيها باستمرار بشباب المدينة اللامع للمناقشة فى الأدب ومناقشة السياسة . وكان سبيد كما يبدو قارئاً ممتازاً مثل لنكولن بل كان يعتبر أكثر صقلا ، وكان هو وكاتبه الذكى اللبق بيلى (هيرندون) ، من المنتظمين فى حضور تلك المجادلات ، وفى بعض الأحيان كان الشاب السياسى الناجح ستيفن دجلاس يجتمع معهم ، وبقدر ما كان قصيرا جداً ومن الديموقراطيين ، كان لنكولن طويلا ومن « الهويج » ومياﻻ للمصالحة .وكثيراً ما كان هؤلاء الرجال وغيرهم يتفكهون ويتندرون بالروايات المسلية ويروون الشعر إلى ساعات متأخرة من الليل . وفى أوقات أخرى كان لنكولن ودجلاس يتناظران فى سلسلة من المناقشات السياسية . . وكانا فعلا اثنين من المناظرين الأفذاذ .

وفى نواح أخرى أيضاً ، كان لنكولن محظوظاً ، ففى الوقت الذى اتخذ جون ت. ستيوارت — الذى شجعه على دراسة القانون — من لنكولن شريكاً له ، وعلى الرغم من أن دفاتر ستيوارت ولنكولن الحسابية التى أمسكاها


GROCERIES

تدل على أن الأتعاب الرسمية التي كانت تحصلها هذه الشركة عن كل استشارة خلال عامها الأول كانت خمسة دولارات فقط ، فقد كانت الشركة محترمة تسير على وفاق .

وفضلا عن ذلك كان لنكولن محبوباً فى سبرنجفيلد ، لأنه خطط بذكاء التدبيرات السياسية التى نقلت عاصمة ولاية إلينوى من فانداليا إلى موقعها الجديد فى سبرنجفيلد .

ومن واقع تعداد الولاية الذى أجرى قبل ذلك بعامين ، يمكننا أن نتصور مدى الحيوية التى كانت عليها هذه المدينة ذات الألف وخمسمائة مواطن فى وقت وصول لنكولن . فقد كان هناك كثير من الحانات مثلما كانت هناك كنائس بلغ عدد كل منها ستاً . ويستطيع القاطن فى هذا المجتمع النامى أن يشترى السلع الجافة من تسعة عشر مخزناً متفرقة وكان هناك أربعة فنادق وأربعة مخازن للأدوية وأربعة مقاه. كان هناك جريدتان تتنافسان فى تلك البلدة وهما اللتان أصبحتا فى آخر الأمر تقريباً أبواقاً شخصية للمتنافسين السياسيين أبراهام لنكولن وستيفن دجلاس. كان سيمون فرانسيس المعاضد والمخلص للنكولن يحرر (سانجامو جورنال) ومن ناحية أخرى كان دجلاس يعتمد على الصداقة والتأييد فى (إلينوى ريبابليكان) وهى التى أصبحت فيما بعد تعرف (إلينوى ستيت ريجستر) وكان يحررها جورج ر. ويبر .

وكانت أغلب المتاجر والمكاتب تواجه الميدان المركزى أو تنتشر على امتداد شوارع المدينة . وعلى البعد تنتشر سلسلة من المساكن ، خليط من أكواخ خشبية ذات بنيان ثابت من خشب أو طوب .

ولكن فى سائر هذه القرية السريعة النمو كانت الشوارع غير ممهدة ،

دوامات من الأتربة فى الجو الجاف ، وحفرات عميقة من طين إلينوى الأسود حينما تمطر السماء . وتتمرغ الخنازير على غير هدى حتى فى الميدان ، وأحياناً كان عبور الطريق يعتبر تمريناً رياضياً وكانت الحياة فى العاصمة الجديدة للولاية خشنة صعبة فى كثير من النواحى .

وعلى نقيض ذلك، كان لكل من المدينة الحديثة والمحامى الشاب اتجاهات فكرية . وكانت سبرنجفيلد تفخر بأن بها مكتبة وأكاديمية وعدة مدارس خاصة . وكان بها أيضاً جمعية مسرحية وجماعة النهو عن المنكر إلى جانب قاعة محاضرات للشباب ، تلك التى شهدت سلسلة من المحاضرات التى ألقاها بها مشاهير الشخصيات أمثال دانيال وبستر .

وقدلا تتمكن قليل من القرى الأمريكية المعاصرة ذات الألف والخمسمائة نسمة من أن تنشر حالة فكرية مماثلة عن طريق الكتب، كما كانت عليه الحال فى سبرنجفيلد وما يتاخمها . وثمة فئة قليلة من المواطنين فى ذلك المجتمع الأول كانت أكثر اهتماماً بالنواحى الثقافية من أبراهام لنكولن .

وامتازت سبرنجفيلد بإكرامها للضيف بحرارة . وكان نينيان و . إدواردز وزوجته «إليزابيث تود إدواردز» من ضمن القادة الاجتماعيين لهيئة نموذجية واسعة الانتشار من الكنتاكيين . . . . وسرعان ما انضم لنكولن إلى هذه الهيئة . وبصفته شريكاً لجون ستيوارت فى مكتبه القانونى ، وزعيماً للأحرار فى مجلس الولاية ، كان عوناً للجميع رغم ملابسه المزرية ، يتكلم بلكنة خاصة فيستحوذ على انتباه المستمعين من الذكور الهازلين الذين لا هم لهم إلا دعوة الآنسات لخاصرتهم فى رقصة .

وتتناقل الروايات المأثورة ما حدث أثناء حفل موسيقى راقص بمناسبة انعقاد أولى دورات المجلس التشريعى فى سبرنجفيلد ، عندما قابل لنكولن

فتاة صغيرة ممتلئة ، زرقاء العينين لبقة ذات ثقافة عالية ، رقيقة المزاج تدعى ماري تود ، الأخت الصغرى لمسز إد واردز . وقد قيل إن الحجرة كانت مزدانة بالزهور تحت ضوء الشموع ولم تكن هناك فتاة أخرى أكثر تألقاً من الصغيرة ماري تود فى الحفل ، وهى فى ثوب الرقص العارى الصدر .

ولم يتمكن أبراهام لنكولن الطويل القامة فى حلته السوداء غير المتناسقة من أن يركز فكره على حكاياته المرحة أو أن يركز بصره على الفتاة الفاتنة التى كانت ترتص تارة مع جيمس شيلدز وأخرى مع بعض صغار المعجبين. وأخيراً اقترب لنكولن من الآنسة تود المتألقة بعد أن استجمع شجاعته ، وأسر إليها طالباً الرقص معها « بأردأ أسلوب » . وتقول مارى تود إنها « كانت كذلك بالتأكيد » .

وهكذا بدأت واحدة من أهم العلاقات الغرامية العاصفة التى أدت إلى واحدة من أهم الزيجات المحيرة فى التاريخ الأمريكى .

ولم يكن هناك شخصان أكثر تناقضاً من أبراهام ومارى . فقد أتيح للنكولن أن يتلقى فى أقل من عام دراساته الأولية ، بينما كانت مارى خريجة اثنتين من الأكاديميات الخاصة حيث درست اللغة الفرنسية والدراما والرقص والموسيقى والأدب والمساعدات الاجتماعية . لم يكن لنكولن من أصل متواضع فحسب ، وإنما كان يشعر بضعة نسبه إلى أسرة هانكس . ومن ناحية أخرى كانت عائلة تود واحدة من أهم عائلات كنتكى . وبينما كان لنكولن عادياً فى مظهره ، متواضعاً متفتح الذهن متأنياً ومتسامحاً، كانت مارى متأنقة متزينة تثير الضجة حوله ، مسرفة ومغرورة ، وفى أغلب الأحيان غير متسامحة تنساق فى أغلب الأحيان فى ثورات الغضب . وبينما كان طموح

لنكولن متواضعاً ، كانت مارى من أكثر السيدات اللواتى عرفتهن سبرنجفيلد طموحا .

وفى الوقت الذى أحيطت فيه مارى بإعجاب لنكولن ودجلاس شيلدز ، كانت تسأل أحياناً عن الرجل الذى تأمل الزواج به فكانت تجيب أكثر من مرة بأنها ترغب فى الزواج من الرجل الذى يبدو أن توليه الرئاسة أكثر احتمالا عن غيره . ووجدت فى لنكولن ودجلاس خير متنازعين يتنافسان على نيل هذا الشرف البعيد المنال . ولكن ربما كانت مارى بطموحها الجارف كفيلة بأن تخلق من أى منهما رئيساً .

ومع ذلك فإن هذه الصورة غير اللطيفة لمارى تود لا تعطينا فكرة كاملة عنها . فجاذبيتها وحيويتها وذكاؤها كانت صفات كافية للحكم بمثاليتها التى أجمع عليها كثير من المؤرخين المحدثين والروائيين . ومن المؤكد أنها لم تقد لنكولن إلى أعماق سوداويته المزمنة ، لكنها جعلته مسحوراً بها . ولقد تناقش الاثنان فى الأدب والسياسة وهما الشيئان اللذان يشتركان معاً فى الإهتمام بهما . وتبعاً لرواية شقيقة مارى بعد أن زارها لنكولن ، « كانت مارى هى البادئة دائماً بالمناقشة . وكان لنكولن يجلس بجانبها يستمع إليها وقلما كان يقول كلمة واحدة ، ولكنه كان يظل محلقاً فيها كأن قوة حفية لا تقاوم شدته إليها » .

وخلال العام الأول الذى تبع لقاءهما بدا أن غرامهما يسير حثيثاً . ورغم معارضة عائلة (إدوارد) فى أن لنكولن زوج غير مناسب ، فقد أعلنت خطوبتهما فى سنة ١٨٤٠ . أما ما حدث بعد هذا مباشرة فما زال محل جدال حتى بين أوسع كتاب السيرة خبرة ومعرفة . والكثير من هذه السيرة مازال معتماً كدخان الهنود الأزرق على طول شاطىء سانجامون . ومع قدوم الشتاء

تحركت الآلام فى قلب لنكولن المتعب وفصم خطوبته فى أول يناير عام ١٨٤١، ومازالت أسبابه الخاصة لفصم تلك الخطوبة غير واضحة .

مرت سنتان من الشقاء لكليهما ، وخاصة لنكولن الذى سيطر عليه الأسى فجعله لايغادر غرفته لأيام . ووجد لنكولن نفسه مهموماً غير واثق من نفسه ، وغير قادر على اتخاذ قراراته أو على التصرف بحكمة بعد علاقة غرامية قصيرة مع سيدة صغيرة تدعى (مارى أونز) لم تكن على جانب كبير من الجاذبية .

ومن المعتقد أن رحلة لنكولن إلى كنتكى لزيارة جوشوا سبيد ساعدت على استعادته حالته المعنوية وسعادته . أما عن سبيد الذى عاد إلى ولايته الأصلية فقد أعلن خطوبته إلى فتاة جميلة تدعى (فانى هيننج) ، لكنه كان نافراً من المضى فى الزواج كنفور لنكولن نفسه . ويبدو أن لنكولن حينما كان يقنع سبيد بأن النفور من الزواج يعتبر منافياً للمنطق ، اقتنع هو نفسه بهذا . وعندما كتب سبيد إليه يصف سعادته الزوجية ، أمد هذا الخطاب لنكولن « بسعادة كبيرة تفوق كل ماتمتعت به من ذلك اليوم البغيض من يناير عام ١٨٤١ » .

ومن المحتمل أن زوجة سميون فرانسيس ، رئيس تحرير جريدة (سانجامو جورنال) هى التى جمعت لنكولن ومارى تود مرة أخرى . فقد جعلتهما يستعملان منزلها فى مقابلاتهما السرية . وكان مما لاشك فيه أن هذان المتآمران تعاونا بسرور فى كتابة خطابات (المدينة الضائعة) التى كادت أن تكلف لنكولن حياته يوماً من الأيام .

اعتاد أبراهام قبل بلوغه العشرين ، أن يكتب تقريعاً موجعاً للأمور تثير روح الفكاهة . لكنه استغل هذه الموهبة باستعمالها فى المعاداة السياسية .



فعندما أصبحت لديه الحرية فى أن يكتب فى جريدة (سانجامو جورنال) وأن تفرد لكتاباته أعمدة الجريدة ، وجد إغراء لا يقاوم نحو الكتابة بسخرية، والهجوم على بعض أعدائه ، موقعاً على مقالاته بأسماء مستعارة كان من بينها (شبح سامبسون) .

وتخيل لنكولن ومارى ـ ومن المحتمل أنهما وجدا مساعدة من أقرب صديقات مارى(جوليا جلين) ـ تخيلا شخصية كاتبة خطابات جديدة، إلى جريدة (سانجامو جورنال)وصفت نفسها بأنها مزارعة من(المدينة الضائعة) ووقعت كتاباتها باسم (العمة بيكا) . ولسانها كان حلواً كالكعكة ، لاذعاً كالملح . ولم يكن ضحيتها غير خصم لنكولن فى السياسة (ومن قبل فى الحب)الأيرلندى المولدجيمس شيلدز ، مراجع حسابات الولاية .

ولقد ساعد لنكولن وزملاؤه الاحرار من حزب « الهويج » على جر الديون الكثيرة على الولاية ، واتخذ موقفاً واضحاً فى لوم شيلدز وحزبه على بعض التصرفات المالية للولاية ، والتى كانت أخطاء لنكولن سبباً فيها أكثر مما سببتها أخطاء شيلدز .

وتطورت المؤامرة ببطء إلى أمور غير مرغوب فيها ، ووجد لنكولن نفسه يواجه تحدياً سافراً بالإعتذار أو القتال ، بعد أن نشر خطابا بالسباب كتبته مارى تود وجوليا جلين فى غيبة لنكولن ووقعتاه أيضاً باسم (العمة بيكا) . ولم يكن هناك مفر من الدعوة إلى هذا التحدى . وقد طلبت العمة بيكا إزاء إصرار شيلدز على القتال أن يكون متكافئاً . فإما أن يرتدى شيلدز جونلة نسائية وإما أن ترتدى هى سروالا !!

وقد نفد صبر شيلدز وأصر على أن يكشف المحرر عن الكاتب الحقيقى

لهذا الهجوم . ولكن لنكولن، وهو المتحمل لمسئولية تلك الخطابات ،حاول أن يعالج المأزق الذى تردى فيه بدون اعتذار علنى .وعندما فشل فى هذا قبل تحدى شيلدز مضطراً . واختار أكبر سيوف الفرسان كسلاح للقتال . وكان شيلدز واحداً من معلمى لعبة الشيش . ولهذا كان اختيار لنكولن للأسلحة يعتبر انتحاراً ،لولا التعاهد الهزلى الذى تم بينهما والذى قبل لنكولن بمقتضاه الاتفاق على القتال ، وهو الذى بمقتضاه يوضع لوح من الخشب على حافته فوق الأرض . وعلى المتصارعين ألا يعبرا لوح الخشب ولا التقهقر عنه بعد خط مرسوم « كل المسافة بينه وبين لوح الخشب لاتتعدى طول السيف بالإضافة إلى ثلاثة أقدام» . ورغم طول خبرة شيلدز بفن المبارزة فإنه ما كان ليستطيع الوصول إلى لنكولن ذى الذراعين الطويلين . وفى نفس الوقت فإن لنكولن ما كان ليستطيع التقهقر إلى مابعد الخط دون أن يسىء إلى سمعته وذلك ليتجنب ارتكاب الجريمة التى تنتظره وهى غير مرغوب فيها بالمرة . ومرت الثوانى أكثر عنفاً من المبادىء التى من أجلها أثير القتال . واستمر لهيب الغضب يجدد الهواء الذى يزيده اشتعالا . لكنهما عندما تقابلا فى الموعد المحدد على شاطىء ميسورى من نهر المسيسبى أمام ألتون فى ولاية إلينوى ، سويت كل الخلافات بينهما دون قتال .

وعلى كل حال ، كان هناك على الأقل شيئان يستحقان الاهتمام نتجا عن هذا الصراع . فلم يعد لنكولن يهاجم خصمه إطلاقاً بخطابات مجهولة الإسم من ناحية ، ومن ناحية أخرى لمستماري تود بحق شهامة لنكولن فى الدفاع عنها . وسرعان ماوافقت على زواجهما السريع .

ولم يشهد الاحتفال بالزواج إلا أقرب الأصدقاء عندما تعاهد الاثنان

فى ٤ نوفمبر ١٨٤٢ فى منزل إليزابيث ونينيان إدواردز على : « لن نفترق حتى الممات . على الحلو والمر . بالغنى وفى الفقر . فى المرض والصحة » وهكذا اشترك الاثنان فى الكفاح الشاق الطويل ، نحو تحقيق طموح مارى الكبير : دخول البيت الأبيض مع أبراهام رئيساً للجمهورية ، ومارى كسيدة البلاد الأولى .

الفصل العاشر

عضو الكونجرس ومحام

« فى عام ١٨٤٦ انتخبت عضوا فى مجلس النواب بالكونجرس »

أ. لنكولن

كان للنكولن فى حياته العملية شركاء ثلاثة ، الأول جون ت. ستيوارت وهو الذى ذكر من قبل ، ثم ستيفن ت. لوجان، وأخيراً وليام ه. هيرندون. وعندما حل « ستيوارت ولنكولن شركتهما معاً عام ١٨٤١ ، تعاون لنكولن مع لوجان الذى كان واحداً من أذكى العقول القانونية فى إلينوى . كان رفيعاً قليل الحجم ذا شعر أحمر غزير ، لايهتم بمظهره تماماً كحال لنكولن . لكنه كان يجهز قضاياه بعناية أكثر. ولقد علم لوجان شريكه أن يعطى كتب القانون الخاصة به عناية أكبر وأن يتقن وينظم قضاياه . وقدأصبح لنكولن بهذا وكيلا قانونياً أقدر عن ذى قبل على الرغم من أن لوجان وصفه باستخفاف بأنه « محام جيد وظريف » ومعلوماته العامة فى القانون « لم تكن أبداً هائلة» .

قرر لوجان عام ١٨٤٤ أنه يفضل ابنه كشريك له . و عندما أصبح لنكولن بلا شريك ، دهش « بيلى » هيرندون البالغ من العمر ستة وعشرين عاماً عندما عرض عليه لنكولن مشاركته . ويقول هيرندون « كنت مازلت قليل الخبرة . وكنت أعرف مدى حاجتى إلى الحذر والخبرة ، لكن لنكولن عندما استمع إلى ماقلته أجاب بطريقته الكريمة الجادة « بيلى ، أستطيع أن أثق بك إذا كنت أنت نفسك تثق بى » . ولقد أحسست ساعتها بالارتياح ووافقت على هذا العرض الكريم .

ولقد كان عرض لنكولن كريماً بحق . ولم يكن عرضه هذا يحمل فى جنباته إهمالا أو عدم دقة فى حسبانه كما يبدو . أما عن هيرندون ، فقد كان له نشاط سياسى مع جماعة الفتوة الجامحة ، الذين كانوا عضواً هاماً لأية انتخابات فى المدينة . وكان تعليمه أرقى من تعليم لنكولن نفسه ، وكان حقل معلوماته العامة غزيراً خاصة فى الفلسفة . ومن المحتمل أن لنكولن فضل أن يدخل بعض التعديل فى حياته فاختار لنفسه مركز الرئاسة فى هذه الشركة واختار بيلى هيرندون ليليه فى المركز . وتحول احترام الشاب نحو « مستر لنكولن » تدريجياً ليصبح إعجاباً بطولياً به ، لكنه اختلط لاشعورياً، وإلى حد ما ، بالغيرة .

وبعكس لنكولن فى ملبسه المتثنى غير الملائم لجسده ، كان هيرندون متأنقاً يلبس حذاء رشيقاً من الجلد البراق وقفازاً من جلد الماعز الأنيق . وكان كلاهما يضع قبعة طويلة من الحرير ذات حافة عريضة على رأسه . لكن قبعة هيرندون كانت لامعة خالية من البقع ، بينما كانت قبعة لنكولن محشوة بالأوراق القانونية . .

وحتى وفاة لنكولن ، استمر هذان الشريكان فى عملهما معاً دون عقد قانونى يربطهما . يعملان بجد رغم تباين أخلاقهما . وكانا يتقاسمان أرباحهما مناصفة . ورغم أن العلاقة بين هيرندون ومارى زوجة لنكولن كانت أى شىء إلا الصداقة ، فإن العداء الكامن بينهما لم يصل إطلاقاً إلى حد التأثير على العلاقة بين « بيلى » و « مستر لنكولن » ، كما اعتاد أن ينادى كل منهما الآخر .

ولقد كان لنكولن سعيد الحظ فى العمل مع شريكه الوديع فى المحاماة ، لأن حياته فى المنزل لم تكن دائماً مفرحة . لقد أحب كل من لنكولن



وماري الآخر حباً أصيلا كما تثبت ذلك بعض خطابات وعدة برقيات تبادلاها . فلقد تقاسما أحزانهما وانتصاراتهما معاً وتمتعاً بنجاح حملاتهما السياسية بعد قتال عنيف وكأنهما فريق متكامل الأعداد . كان تفكير كل منهما ذا قيمة بالنسبة للآخر .

لكن الصداع الذي كان يلازم ماري ، وسورة غضبها الحادة ولسانها اللاذع حالت دون هدوء البيت . كانت لا ترحم في نقدها طريقة زوجها البسيطة في الحياة وأخلاقه الصريحة وروحه المرحة ، وعاداته الشاذة خاصة في القراءة أثناء رقاده على الأرض وهو رافع ساقيه إلى فوق مستوى رأسه . وعلى كل حال كانت لماري نفسها عادات شاذة هي الأخرى . فقد كانت الرياح العاصفة ترعبها إلى حد أن لنكولن كان يسرع إلى منزله بمجرد أن يلحظ أي سحابة سوداء في السماء ليعمل على راحة زوجته المرتبكة .

عاش الزوجان في بداية زواجهما في فندق سبرنجفيلد في غرفة وصالة بأربعة دولارات في الأسبوع . وولد طفلهما الأول روبرت تود لنكولن في ذلك المكان في أغسطس ١٨٤٣ ، وقد اشتريا في يناير التالي كوخاً بألف وخمسمائة دولار ، أحيل إلى مسكن مريح بعد إجراء بضعة إصلاحات وتوسيعات فيه ، ضمهما معاً حتى انتقلا سوياً إلى البيت الأبيض في واشنطن عام ١٨٦١ . وكان بيتهما في سبرنجفيلد هو الذي شهد مولد ثلاثة أبناء آخرين . إدوارد باركر وكانوا يدعونه (إيدي) الذي ولد عام ١٨٤٦ ، ووليام والاس (ويلي) الذي جاء عام ١٨٥٠ ، وتوماس الذي عرف (تاد) ، وهو الطفل الأخير الذي جاء عام ١٨٥٣ ، ومن الأربعة لم يعش ليبلغ سن الرجولة سوى روبرت تود لنكولن .

قرب حب الأطفال والخوف على صحتهم والسهر بجانب أسرتهم في

مرضهم، بين قلبي أبراهام وماري،وجعلهما هذا الولع الشديد بالأطفال يجدان صعوبة كبرى فى تعليم صغارهما النظام . وقد وصف بيلى هيرندون الأولاد بأنهم كانوا مدللين، وهو الذى لم يكن عادلا فى حكمه أبداً على شيء يحبه لنكولن . كان الأطفال يثيرون ثائرة بيلى عندما كان لنكولن يصطحبهم معه صباح كل أحد للمكتب . فبينما يكون والدهم منهمكا فى القراءة بصوت عال ليسمع نفسه، لاهياً عن الأذى الذى كان يسببه هؤلاء الأطفال ، كان الخبثاء الصغار «يقلبون الحجرة رأساً على عقب ، ينزعون أغلفة الكتب ويقذفون بالأدراج ويقلبون الصناديق ، يدقون أسنان الأقلام وهى من الذهب الخالص فى حائط المدفأة ، ويبعثرون الخطابات وسط الحجرة ثم يرقصون فوقها . . » كان إحساس هيرندون دائماً تجاه الأولاد هو أنهم يحتاجون إلى صفعات قوية . لكن لنكولن الذى أحب دائماً أن يلاطفهم ويشاركهم ألعابهم كان يتفق مع مارى فى أن تقويم أخلاقهم سيتم تلقائياً مع مرور الأيام . ومن المحتمل أن ما لقيه لنكولن أيام «ضرب العصا» من والده الدائم الغضب ، وشبابه المرير القاسى ، جعله ليناً مع أولاده متساهلا . » .

وكما تثبت القصص الكثيرة عنه كان لنكولن مغرماً ومحباً للأطفال . كان طوله ست أقدام وأربع بوصات . كما أضافت قبعته الحريرية المتجهة ناحية السماء إلى طوله بضع بوصات . وكان الأطفال المرحون يمدون خيطاً رفيعاً ربطوه فى الأشجار على ارتفاع سبع أقدام فوق الطريق ليسمح بمرور أى شخص دون أن يلمسه ماعدا لنكولن الذى كانت ترتطم قبعته به ، فتقع أوراقه على الأرض فيخرج الأطفال المختبئون فى الأحراش يضحكون ويصيحون وهم الذين كانوا يحبسون أنفاسهم منذ لحظات ؛ ثم يقفزون على كتفيه . وكان أبراهام كالصغار تماماً يسر لنجاح مقلبهم غير الضار ، ويشاركهم تمتعهم بهذا اللعب والهذر .

كرس لنكولن حياته لممارسة القانون ، لـكن السياسة كانت شغله الشاغل. فبعد أربعة دورات فى مجلس الولاية التشريعى تم ترشيحه بواسطة زملائه الأحرار لعضوية الـكونجرس . وبعد رفضه مرتين لهذا الشرف ، عملت الترتيبات مع زعماء المقاطعة الآخرين من رجال حزبه ليجرب حظه عام ١٨٤٦ ، وفى ذلك العام تم ترشيحه من حزب الهويج وفاز بجدارة على منافسه الديموقراطى . وبدون إحساس شديد بالسعادة التى كان هو نفسه يتوقعها استعد لأخذ مقعده فى المجلس النيابى فى ديسمبر ١٨٤٧ .

وقام عضو الـكونجرس الجديد عن إلينوى ، ومعه زوجته الجميلة المترددة الصعبة المراس ، برحلتهما الطويلة إلى واشنطن بالقارب البخارى ثم بالقطار . وكانت العاصمة فى تلك الأيام تعج بالمتجولين وتعدادها نحو أربعين ألف شخص، منهم ثلاثون ألف أبيض ونحو عشرة آلاف زنجى، منهم نحو ألفين من العبيد . كانت المدينة من أكبر أسواق الرقيق فى البـــلاد تحت سمع الـكابتتول وبصره .

كان مقر الحـكومة فى عام ١٨٤٧ ذا قبة خشبية مؤقتة ولم يكن قد استكمل جناحيه الحاليين . وفى خميلة البيت الأبيض كانت فرقة موسيقى البحرية تعزف بعض المقطوعات لعامة الشعب عصر كل أربعاء وأحد . وبين مبنى المجلس التشريعى والنهر كانت تكمن الممرات المليئة بالملاريا . وكان طريق بنسلفانيا مغطى بالحصى الرفيع وهو الذى كانت تسير عليه عربات الأغنياء محدثة أصواتاً مرتفعة وجلبة شديدة . ومن ناحية أخرى ، كانت الشوارع غير ممهدة ، حالها كحال شوارع سبرنجفيلد ، مليئة بالحفر والأوحال التى تسببها الأمطار ، ومقدار تلك الأوحال كان يتوقف على حالة الجو . كما أن الخنازير والبط والأوز كانت تتغذى بأكوام الفضلات الملقاة فى الأزقة . كانت الأكواخ الحقيرة والقصور الشامخة تقف جنباً لجنب دون أن تـكون هنالك حدود مرسومة .

وإذا لم يكن إحساس لنكولن بالفرح كبيراً بفوزه فى الانتخابات ، فقد كانت خيبة أمل مارى فى مدينة واشنطن عظيمة . وعلى الرغم من أصلها العريق فى كنتكى مسقط رأسها ، كإحدى سليلات عائلة تود ، فقد كان مركزها فى حياة العاصمة الاجتماعية تافهاً . فالدعوات التى جاءتها لحضور مكتبة الحفلات كانت قليلة ومتباعدة إلى حد ما . ونزلت عائلة لنكولن فى نزل (بنسيون) كان يشغل المنطقة التى أقيمت عليها الكونجرس فيما بعد ، والتى مازالت هناك حتى وقتنا هذا . وسرعان ما أصبح أبراهام هو الرفيق المفضل للنزل بالنسبة لرؤساء الخدم والنزلاء على حد سواء ، بسبب قصصه التى كانوا يتمتعون بسماعها منه بالإضافة إلى أخلاقه الحلوة . بينما لازمت مارى غرفتها ماعدا أوقات تقديم الطعام . واقتصرت صداقتها على عدد بسيط من الصديقات . وبعد حوالى الثلاثة أشهر من هذه الحياة الرتيبة ، عادت مارى إلى حياة الانطلاق فى موطنها كنتاكى ، لتنتظر زوجها بعد انتهاء جلسات المجلس .

وقد أمدنا هذا الانفصال بالدليل المكتوب من لنكولن ومارى على حب كل منهم للآخر . ولدينا أربعة خطابات من لنكولن . وخطاب واحد من مارى ، تبين لنا ترينا كيف أنهما على الرغم من عدم اتفاقهما فى كثير من الأحيان ، كان يتفقان معاً فى الشعور بالحنين كل منهم إلى الآخر ، بل أكثر من هذا فقد تشاركا معاً فى عواطفهما نحو أطفالهما .

إن خطابات لنكولن إلى زوجته لايمكن أن تسمى خطابات غرامية ملتهبة . فلقد كتب إلى زوجته يقول إنه سئم « أن أبقى فى هذه الغرفة القديمة وحدى » . ولقد حاول أن يجد جوارب لتلائم « قدمى الصغير إيدى العزيز » كما تمنى لزوجته أن تكون قد تخلصت من الصداع . وكتب لها عن خوفه من

أن تكون « بصحة جيدة وازددت سمنة وصغر سنك كأنك تنتظرين الزواج مرة أخرى » . وطلب منها أن تزن نفسها وتخبره بوزنها ، كما تحدث عن أولاده فقال « لا تجعلي الأحباء الصغار ينسون بابا » ووقع خطاباته « المحب الأكبر » وهو الشيء الذى إن لم يكن شعراً عاطفياً ، فعلى الأقل يعتبر رسالة رقيقة وعائلية من رجل إلى زوجته .

وعندما اتخذ لنكولن مقعده فى الصفوف الأخيرة كعضو جديد بالمجلس فى دورته الثالثة عشر ، كان واحدا من أقل الأعضاء معرفة بالجهاز التشريعى. وفى القاعة أيضاً جلس رجال عديدون من الذين صنعوا التاريخ أو كانوا على وشك صنعه .

كان من أبرزهم الرئيس السابق للولايات المتحدة جون كوينسى أدامز ، عضو الأحرار البالغ من العمر أربعين عاما ، ثائر ومغرم بوطنه يفوق لنكولن نفسه فى نقده المفتوح للرق . وكان لنكولن إذا أدار رأسه ويساراً أو يمينا استطاع أن يلمح ألكسندر ستيفنس من جورجيا الذى أصبح نائباً لرئيس الولايات المتحدة ، وأندروجونسون من ولاية تنسى الذى أصبح فيما بعد نائباً لرئيس الجمهورية تحت رئاسة لنكولن ، ودافيد ويلموت من بنسلفانيا وهو واحد من مؤلفى شرط ويلموت الإضافى ضد الرق ، وكان من أكثر أعضاء الكونجوس فى المجادلة . ولم يكن أحد من الجالسين فى تلك القاعة يتخيل أبداً أن هـذا العضو الجديد من إلينوى الخضراء ، وهو الذى لم يكن يعرف أبداً ما الذى يفعله بيديه وقدميه الكبيرتين ، سيصبح يوماً ما زعيماً لهم .

ولقد كانت هناك عـدة مسائل محلا للنزاع فى الدورة الثالثة عشرة



للكونجرس . لكن أشد القضايا إثارة كانت الحرب المكسيكية ، وازدياد النزاع الطائفى حول الرق ، بل تداخلت المشكلتان معاً فى بعض الأحيان .

حصل لنكولن على مقعده عام ١٩٤٧ مع انتهاء الحرب المكسيكية تقريباً ولكن على الرغم من الانتصارات التى تمتع بها كان الإنهاك الذى خلفته الحرب مازال باقياً . وأكثر من هذا فإن الرئيس بولك ، كان ديموقراطياً وجعله هذا لا يتمتع بثقة « الهويج » .

انشغل لنكولن بعضوية لجنتين على الأقل من لجان الكونجرس . وقد كان لفت النظر الوحيد الذى تلقاه حتى من جرائد إلينوى نفسها يتعلق بتبنيه « قرارات المكان» Spot Resolutions الذى كان يهدف بهما إلى إرغام الرئيس بوالك على التسليم بأن (المكان) الذى أريقت عليه أول نقطة من دماء الحرب كان فعلا أرضاً مكسيكية . ويصم هذا الأمريكيين بأنهم معتدون فى نزاع غير عادل ومازال المؤرخون حتى الآن يبحثون عن إجابة هذا السؤال الهام . لكن الذى يجب الإشارة إليه ، أنه لا لنكولن ولا جريدة (سانجامو جورنال) أظهروا ارتياحهم فى تقبل العجرفة المكسيكية عند بدء القتال . وبينما كان لنكولن يكره الحرب فى كل الأوقات طوال سنى عمره ، فإن مناوراته فى تلك الأزمنة ساعدت حزب الهويج فى تقوية استراتيجيته التى ترمى إلى تحطيم شعبية الرئيس بولك والديموقراطيين ، ليتسنى انتخاب رئيس جمهورية من الهويج فى انتخابات الرئاسة المقبلة .

ولكن الأثر السريع الذى تركته (قرارات المكان) هى أن أصبح أبراهام لنكولن واحداً من أقل أعضاء الكونجرس شعبية فى المجلس وحتى فى ولايته ، بل فى مقاطعته كلها . وكثير من أصدقاء أبراهام وجيرانه قتلوا

أو جرحوا فى الحرب . وقد توسل بيلى هيرندون فى كل رسائله إلى شريكه لنكولن أن يخفض من نغمة هجومه ، لكن انكولن أصر على معاداته للحرب ومعاداته لبولك . ومضى فى الدعاية ضد الديموقراطيين .

ومرة أخرى ، لم يكرس نفسه (للسياسة العملية) وحدها ، فقد أعد مشروع قانون يهدف إلى تحرير العبيد فى مقاطعة كولومبيا مقدماً دليلا مبكراً على وطنيته التى كانت تهدف إلى التخلص من تلك الرذيلة بطريقة محافظة وبوسائل غير عنيفة . ولكن مجهوداته لم تسفر عن شىء .

عاد لنكولن إلى سبرنجفيلد مرة أخرى بعد حضور الجلسة الثانية للمجلس . وأقام مع مارى وأولاده فى بيتهما المتواضع مؤملا أن يحصل على وظيفة عامة ذات مركز قوى . وعندما عرضت عليه سكرتارية أراضى أوريجون ، وهو مركز لايغرى على الإطلاق دفعته مارى ، وهى التى لم تكن لديها الرغبة فى المعيشة بالغرب الموحش البعيد ، على اتخاذ قراره بعدم قبول هذا المركز ، وشعر لنكولن وقتها بأن حظه قد تحطم إلى الابد فى ميدان السياسة .

وعاد من جديد وهو حزين إلى ممارسة القانون وليقضى عدة سنوات كلها تفكير وهدوء .

وفرت محكمه الدائرة الثامنة القضائية فى المقاطعة التى تشرف على مساحة قدرها ١٢ ألف ميل مربع من برارى إلينوى ، حياة متنقلة للنكولن ، وأخذته وظيفته من بلد إلى أخرى ، وأبعدته عن بيته بالأسابيع بل حتى عدة شهور فى وقت واحد . وقابل فى طوافه العواصف الثلجية والسيول المنهمرة ، كما قابل الجو المنعش والسماء الصافية .

وكان يمتطى فى رحلاته حصاناً ، وغالباً ما سافر فى عربة صغيرة دائمة الصرير أثناءسيرها وكان يضع شالا حول كتفيه الرفيعتين ، ودائماً وأبداً . كان فى يده كتاب . وفى عام ١٨٥٠ كان يسافر أحياناً بالسكة الحديدية ، وظل يقرأ حتى تمكن من الكتب الستة الأولى ليوكايدس فى الهندسة معتقدا بحق أن الهندسة تساعد على تركيز أى عقل من العقول . كما أنه قرأ ونظم الشعر .

وفى المدن والقرى المختلفة التى كانت تنعقد فيها المحكمة ، تقابل مع القضاة وبعض الشخصيات الأخرى ، يغزلون الخيط ويتناقشون فى السياسة ويلقون النكات حتى منتصف الليل . كان لنكون حياة الجماعة وتخلص من سوداويته ليقص القصص ويروى النكات .

لم يكن لنكولن حتى ذلك الوقت قد بلغ الذروة المالية التى كانت ستأتيه فيما بعد ، عندما تقاضى أكبر أتعاب استحقها عن جدارة وهى خمسة آلاف دولار من شركة السكك الحديدية المركزية بإلينوى . ولكن لعله شعر بارتياح أكثر عندما ترافع عن أرملة كانت تطالب بحقها فى التعويض عن فقد زوجها ، وكان أحد المحتالين قد استولى بدون وجه حق على هذا التعويض . وقد رفض لنكولن وقتها أن ينال أجراً على هذه المرافعة .

وكانت قضية داف أرمسترونج المشهورة ، قضية أخرى رفض فيها أن يتقاضى بنساً واحداً ، وكان أرمسترنج الصغير ، ابن جاك وحنا أرمسترونج صديق لنكولن منذ أيام نيو سالم ، متهماً بالقتل . ولقد أقسم الشهود أنهم رأوا داف فى ضوء القمر الساطع يضرب جيمس متزكار « بطعنة نجلاء » وكان الشاهد الرئيسى يدعى ألن ويعمل فى طلاء المنازل .

وكان لنكولن أكثر من « محام ماهر » فى مثل هذه المناسبات . . لقد كان بارعاً . فعندما استمع إلى ما قيل ، التفت لنكولن إلى المحلفين وقال فى قوة » سأريكم الآن أن قول هذا الرجل ألن هو قمة الكذب لأنه لم ير أرمسترونج يضرب متزكار بطعنة نجلاء ، ولم يشهد هذا القتال على ضوء القمر المكتمل ، لأن القمر لم يكن فى السماء تلك الليلة . وبالتقويم الصحيح أثبت لنكولن صدقه إلى أكمل حدود الإقناع . لم يكن القمر مضيئاً خلال الساعة التى حدث فيها ذلك الحادث وكل هذه الضجة . . ولهذا فإن ألن لم ير ما قاله من أنه رأى خلال « ضوء القمر الساطع » .

وحلل لنكولن للمحلفين بهدوء وعناية كل الدلائل التى أثبتت براءة موكله . واختتم مرافعته بكلام لم يستطع كل الحاضرين مقاومته . « أيها السادة . أقف أمامكم هنا دون انتظار لمكافأة ، لمصلحة هذه السيدة التى تجلس هناك » وأشار لنكولن إلى حنا أرمسترونج والدة داف التى كانت تنتحب بقوة « التى غسلت قصانى المتسخة عندما لم يكن لدى نقود لأدفعها لها » . وقص بعد ذلك فترة شبابه فى نيوسالم وكيف أن والد ووالدة داف أرمسترونج كانا غاية فى الكرم مع شاب مفلس تماماً احتاج يوماً ما إلى طعام ومأوى . وقال إنه يعتقد أن ابناً لهذين الوالدين لا يستطيع أن يرتكب جريمة ما .

وفاضت حنا أرمسترونج بالعواطف كانكولن نفسه ، وجاء قرار المحلفين يقضى بأن داف برىء بعد تلك المرافعة القوية التى أداها لنكولن . وعندما سمعت القاعة « غير مذنب » قال لنكولن : أنا أصلى لله لأن هذا الدرس قد يأتى فى النهاية بدرس عظيم له وللجميع . . لكن جريمة التقويم Almanac Murder كانت مازالت تنتظر لنكولن بضع سنين أخرى وهو

يتنقل مع الدائرة القضائية فى عام ١٨٥٠ تحت البرد والضباب والمطر والشمس .

درس لنكولن وفكر وثابر على استكمال شخصية رجل السياسة الذى لا ينسى. ذلك الرجل المحب للخير، بعينيه العميقتين ، وفكره الثاقب ، رغم أنه لم يكن أنيق الملبس، ببنطلونه المرتفع الذى يصل إلى رقبة حذائه . وبيجامته الصفراء المصنوعة من الفانلة ، التى كان يرتديها فى المنزل والحانات .

الفصل الحادى عشر

بيت منقسم

«فقدت اهتمامی فی السیاسة، ولكن نقض اتفاق ميسوری أعاد لی ذلك الاهتمام
مرة أخرى» .

أ. لنكولن

كمن العداء بين الولايات الجنوبية التى كانت تعترف بنظام العبيد والولايات الشمالية التى منعت فيها تجارة الرقيق لأكثر من أربعين سنة قبل الحرب الأهلية . وكان هناك اتفاق يحفظ التوازن بين الولايات . ففى عام ١٨٢٠ كانت فى الاتحاد اثنتان وعشرين ولاية - إحدى عشرة منها تبيح الرقيق ومثيلاتها تحرمه . وعندما دخلت ولاية «مين» الاتحاد كانت تحرم الرقيق ، بينما دخلت ولاية ميسورى كولاية تبيحه .

وعلى كل حال فقد كان (التعهد المقدس) الذى بمقتضاه كان الجزء من لويزيانا المشتراة ، والتى لم تكن قد أصبحت ولاية بعد ، والذى يقع على خط ٣٠َ ٣٦° قد منع فيه الرق نهائيا . كان هذا التعهد من أهم أسباب التهيئة (لاتفاق ميسورى) .

تقدم السناتور ستيفن أ . دجلاس فى ١٨٥٤ إلى مجلس الشيوخ بمشروع هز الأمة ،وزاد من حدة التوتر بين الشمال والجنوب وجاءت لائحة كنساس- نبراسكا لتنقض اتفاق ميسورى ، وثار من جديد السؤال المرير الذى يتساءل عن الحدود التى توضع لتحديد امتداد نظام العبيد .

تمت الموافقة على اقتراح دجلاس فى الكونجرس بعد شهور من الجلسات النارية وسمح لمواطنى كنساس ونبراسكا وكلاهما شمال الخط المتفق عليه ليحددوا بأنفسهم رغبتهم لأن يكونوا إما ولايات حرة وإما ولايات مبيحة للرق . وقد خاف الرجال أمثال لنكولن من انتشار الرق مرة أخرى واعتبرت اللائحة الجديدة نقضا (للعهد المقدس) بأن هذه المنطقة يجب أن تظل بلا رقيق إلى الأبد .

وسرعان ما أصبحت كنساس مسرحا لاصطدامات عنيفة بين رواد مشجعى الرق والداعين لتحريمه ، واندفعوا إلى الأراضى على ظهور الخيل والعربات مسلحين بالمسدسات والمدى الكبيرة ، وكل جانب يود أن يسيطر على الانتخابات التى ستقرر مصير العبيد تبعاً لشعور الأهالى .

ولكن قبل أن يبدأ السلب والقتال وإشعال الحرائق فى (كنساس الدامية) انتشرت حرب الخطابة حول اللائحة الجديدة فى كل البلاد . ولم يستطع لنكولن أن يرى كل هذه المحاولات وكل هذا النضال حول مسألة حيوية دون الانضمام إليها بصوته ومنطقه . ورأى أن حزبه القديم ، حزب الهويج يتداعى ويتفرق بسبب هذا النزاع . ولاحظ أن هناك حزباً قوياً جديداً أسسه رجال أطلقوا على أنفسهم (الجمهوريون) يحرز كل يوم تقدماً فى مقاومته انتشار موجة إباحة الرق .

أبطأ لنكولن فى الانضمام إلى الجمهوريين « المتطرفين » لكنه كان أبطأ فى الهجوم على لائحة كنساس ـ نبراسكا .

وتقدم لنكولن إلى عضوية مجلس الشيوخ لكنه انهزم فى ٨ فبراير عام ١٨٥٥ فى المجلس التشريعى لولاية إلينوى . وفى العام التالى آمن بضرورة



انضمامه إلى الجمهوريين لإحساسه بوجوب مقاومة الرذيلة المتزايدة مقاومة فعالة . وفى ٢٩ مايو ١٩٥٦ لم يكن هناك أدنى شك حينما وقف لنكولن ليقول إن الأزمة كانت تحطم الأمة جميعها . فى ذلك التاريخ وقف لنكولن فى بلومنجتون ، عند إعلان ميلاد الحزب الجمهورى فى إلينوى رسمياً والقى خطاباً مؤثراً إلى درجة أنه نوم مستمعيه مغنطيسيا . فقد نسى كل المستمعين وحتى مخبرو الصحف أن يسجلوا كلمة واحدة من ذلك الخطاب . ولقد أصبحت خطبته الحماسية هذه أشهر خطبه ،وهى التى عرفت بالخطبة الضائعة Lost Speech

وكتب بيلى هيرندون فيما بعد ، وهو الذى جلس يستمع إلى لنكولن مذهولا :

« لقد استمعت أو قرأت كل خطب المستر لنكولن العظيمة . وفى رأيى أن خطبة بلومنجتون كانت أجل أعمال حياته . فإنه ببساطة طرح مشكلة الرق على بساط السياسة بأسلوب السياسى ، دون الإشارة إلى الحق الأبدى . هنا ولد لنكولن من جديد . كانت لديه الحمية لتحول جديد . لقد توقدت الشعلة التى خبا نارها . واشتعل فى نفسه حماس لم يكن معهوداً فيه وبرقت عيناه بالإلهام » .

نحى هيروندون جانباً قلمه والورق الذى اعتاد أن يسجل عليه كلمات لنكولن « وعاش فقط فى إلهام الساعة » . فقد أحس هو ومن معه بالنار والقوة والحيوية تسرى فيهم إثر سماعهم خطاب لنكولن . ووجد الكلمات القوية الرنانة تحلق بصدق عميق فوقهم . . « الصلب الثقيل الصعب والنتوء الذى يظاهره السخط . . هو المشكلة . . «كان أبراهام لنكولن يحمل بلا هوادة على العدو ، وكما قالها هيرندون بنفسه « لو كان طول مستر لنكولن

ستة أقدام وأربع بوصات ، فني بلومنجتون ذلك اليوم كان طوله سبع أقدام ، بل ربما أكثر » .

وبالرغم من عدم وجود نص مكتوب للخطبة ، فإن أنباء تأثيرها على الجمهوريين المجتمعين فى إلينوى انتشرت شرقا بسرعة . وبعد ثلاثه أسابيع عندما انعقد المؤتمر الوطنى للجمهوريين فى فيلادلفيا لاختيار قائمة رئاستهم الأولى حصل لنكولن على ١١٠ صوتا كمرشح الحزب لنائب الرئيس . وكان حظه كبيراً ليصبح نائباً للرئيس المختار جون فريمونت . وفى الانتخابات التى تلت هذا حذف اسم لنكولن ورشح بدلا عنه ويليام ل . دايتون فى نيوجرسى .

عندما سمع لنكولن بقصة الـ ١١٠ صوتاً قال فى ذهول وتأفف «أظن أننى لم أكن المقصود . لعل فى ماسوشتستس رجلا عظيما آخر يدعى لنكولن وأظن أنه هو ... » وكان من حسن حظ لنكولن أنه لم يكن المرشح لأول قائمة ضعيفة للجمهوريين . بل إنه من حسن حظه مرة أخرى ـ فى تاريخه البعيد ـ أن فريمونت هزم أمام المرشح الديموقراطى جيمس بوكنان ، وكان الجنوب يهدد بإشعال نار الحرب الأهلية الأمريكية فى حالة وصول فريمونت إلى البيت الأبيض . وقد يعنى هذا أموراً خطيرة للأمة ، لأنه فى عام ١٨٥٠ لم يكن الشمال موحداً وكفؤا لمقاومة تلك الحرب .

وبعد يومين فقط من انتخاب بوكنان للرئاسة ، تقدمت محكمة الولايات المتحدة العليا تحت رئاسة روجر تانى بقرار يقضى بأن الزنجى «بعيد جداً عن مستوى الرجل الأبيض حتى يعتبر مواطناً فى محكمة تطبق القانون .. » . وقد أثار هذا العناصر المناهضة للرق فى الشمال وازدادت حرارة الحرب الباردة بين المعسكرين المتنافرين .

وكان سباق لنكولن عام ١٨٥٨ للوصول إلى مجلس الشيوخ أكبر مجهوداته خلال الأعوام الأربعة الأخيرة . وكان السناتور دجلاس ، وقد قاربت مدته الثانية على الانتهاء خصمه المرتقب . والحقيقة أن لنكولن كان يواجه خصماً مشهوراً وقوياً مما جعل المعركة بينهما حامية الوطيس .

وقبل ترشيح لنكولن فى المؤتمر العام للجمهوريين فى سبرنجفيلد فى ١٦ يونية ١٨٥٨ ، ألقى لنكولن خطاباً آمل فيه أن يظل فى ذاكرة الجميع إن كانت كل أعماله قد انمحت.وقد كانت خطبته (بيت منقسم) House Divided صريحة إلى أبعد الحدود وجريئة بحيث جعلت كل أصدقائه ، عدا هيرندون، يتوسلون إليه ألا يلقيها . وقال له هيرندون كأنه يتكهن بالمستقبل ... « لنكولن . ألق هذه الخطبة تجعلك رئيساً » .

وها هى بعض كلمات ذلك الخطاب الذى ما زال يرن كأنه ناقوس صارم ...

« لا يمكن أن يقف بيت منقسم على نفسه . أنا أعتقد أن هذه الحكومة لا تطيق أن تبقى نصف الأمة عبيداً والنصف الآخر حراً . أنا لا أتوقع أن ينحل هذا الاتحاد ولا أتوقع أن يسقط هذا البيت. ولكننى أتوقع أن ينتهى هذا الانقسام. .»

وبينما أمدت هذه الكلمات كثيرين فى الشمال بالشجاعة ، حركت هذه الكلمات نفسها الغضب العميق فى الجنوب والتفوا حول ستيفن أ. دجلاس كمحاولة لإثبات أن لنكولن رغب فى إثارة حرب أهلية . وقام دجلاس وهو السياسى المحنك فلم يطالب بأكثر مما طالب به لنكولن . وعرف أنه لا بد من تكريس كل الجهود لهزيمة خصمه الطويل ذى الأطراف الطويلة لأنه لم يكن هو الذى يبخس خصمه حقه . وعندما سمع دجلاس بترشيح لنكولن لعضوية مجلس الشيوخ قال إن لنكولن من بين كل أعضاء حزب « الهويج » سبرنجفيلد « هو أحسنهم وأكثرهم أمانة » .

عندما عاد دجلاس إلى إلينوى لتعيد الولاية انتخابه ، كانت رحلته رائعة . كان رجلا غنياً مفرط الذكاء قليل الحجم ، يسافر من بلدة إلى أخرى عادة فى عربة خاصة من عربات السكة الحديد تصحبه زوجته الثانية أدريل كاتس دجلاس الرائعة الحسن ، الذى كان ملبسها الرشيق حديث عاصمة الأمة كلها . وعلى إحدى عربات القطار المسطحة وضع مدفع براق من النحاس اللامع يقف عليه حراس فى زيهم الرسمى . وعندما كان القطار يشرف على مدخل إحدى المدن ينطلق هذا المدفع يعلن للمواطنين أن ستيفن أ . دوجلاس العظيم سيلقى خطاباً . وكان أبراهام لنكولن بشعره المشعث يركب فى إحدى عربات الركاب بنفس القطار . فلم يكن عنده لا المال ولا الرغبة فى منافسة خصمه فى هذه المظاهرة . وكان لدى كل من المرشحين نوع خاص من الجاذبية ، ولكن يقال إن لنكولن أوضح « أنك تستطيع أن تسخر من كل الناس بعض الوقت . ومن بعض الناس كل الوقت . لكنك لا تستطيع أن تسخر من كل الناس كل الوقت . . . » .

تبع لنكولن السناتور دجلاس من مدينة إلى أخرى أول الأمر ، وكان يلقى خطبه عندما يدعى إليها أو يخطب وحده فى المجتمعين . وبدا له أنه قد يكون عملياً أكثر إذا شارك منافسه نفس المنصة . وتحدى لنكولن منافسه فى عدة مناسبات . ولم يجد دجلاس مفراً من تحديه بعد أن وجد خسارته المحتملة بدت أكثر من مكسبه .

هذا ما حدث فى سبع مدن من ولاية إلينوى هى أوتاوا ـ فريبورت ـ جونسبورو ـ شارلستون ـ جالسبورج ـ كوينسى ، وهى المدن التى سعدت ببعض وقفات التاريخ الأمريكى المشرفة .

جاءت الحشود بالقوارب وعربات تجرها الثيران والخيول والعربات

الصغيرة والقطارات الخاصة ، بل على الأقدام ، ورأوا مواكب الشعل والفرق الموسيقية وباقات حساناً من الفتيات الجميلات .. وحلقت الأعلام فوق رءوسهم وسمعوا الهتافات والشعارات، وأكلوا وشربوا أطيب الطعام . وقفوا تحت الشمس المحرقة فى أوتاوا . وتحت رذاذ المطر العنيف فى فريبورت . . وفى طقس جالسبورج اللطيف . جاءوا وذهبوا وتمتعوا وتضايقوا وسروا وضحكوا واستمعوا ثم سروا مرة أخرى . لم يكن هناك شخص ما يستطيع أن يقدم لها عرضاً أكثر تشويقا من هذا .

كان دجلاس لبقاً ، يلبس عادة سترة زرقاء أو بيضاء وقميصاً رعاشاً وصديرياً قصيراً مع بنطلون أحسنت حياكته ليناسبه تماماً وحذاؤه يبرق من اللمعان . كان وفير المعرفة ، عنيفاً مناقشاً فصيحاً واثقاً من نفسه مكيراً كالثعلب .. كثعبان السمك ناعم الملمس سريع الانزلاق من المآزق .

أما لنكولن الذى كان يعلو بمقدار إحدى عشرة بوصة كاملة على دجلاس القصير القامة ، فكان يلبس سترته الداكنة السوداء بأكمامها القصيرة التى لا تصل إلى رسغيه ، وقميصاً يبدو عليه القدم ، وربطة عنق دائمة الاعوجاج. وكان دائماً يضع شالا رمادياً قديماً ويمسك بمظلة منتفخة . ولكن عندما كان أحدهما يبدأ الكلام كانت الآلاف الملتفة حول المنصة تنسى مظهرهما الخارجى بل حتى تنسى أنفسها . . فإن اثنين من أعظم المناقشين فى عصرهم يعملان فوق ما فى طاقة عقلهما ليفوز أحدهما بثقة المستمعين .

وإذا كان دجلاس ثعلباً ، فإن لنكولن كان بحق هو صائد الثعلب . فلقد سأل لنكولن فى فريبورت سؤالا وضع بمهارة فائقة .. سأل دجلاس كيف يستطيع شعب أية أمة قانونياً « أن يمنع الرق قبل وضع دستور للدولة ؟» . وكان لنكولن يعرف الإجابة المنتظرة من دجلاس . وعرف أنها كفيلة



بإسقاطه إن لم يكن فى هذه الانتخابات ، فعلى الأقل فى الانتخابات الأكثر أهمية عام ١٨٦٠ .

وأجاب دوجلاس بفصاحة أن أية أرض تود تحرير عبيدها تستطيع هذا بإقرار قوانين لاتحبذ هذا النظام . وخرجت آهات الاستحسان تعقيباً على هذا الرد الذى بدا بارعاً لكن لنكولن أيقن أنه كسب صراعاً هاماً يعرفه هو ، فلقد أصبحت تلك الإجابة تعرف فيما بعد « بمشروع فريبورت » الذى أنزل قيمة الديموقراطيين الجنوبيين وأفقد دجلاس نحو ثلث مؤيديه السياسيين. وأطاح بالديموقراطيين وجعل انتصار الجمهوريين عام ١٨٦٠ قريب التحقيق والمنـال .

قام مراسلو الصحف فى كل الاجتماعات السبع بتدوين النصوص الحرفية بالاختزال لكل كلمة قيلت . وعلى هذا فلم يكن المستمعون وحدهم هم المتتبعين لكل كلمة قيلت ، بل كذلك القراء فى كل أنحاء الولايات المتحدة استطاعوا تتبعها عن طريق الصحف . وفى ليلة واحدة أصبح لنكولن شهيراً معترفاً به كسياسى وطنى .

وبعد تلك الساعات المضيئة فوق المنصة ، عندما استطاع لنكولن خلع ربطة عنقه وحذاءه فى غرفته بالفندق ، كانت عدة خواطر مختلفة تنتابه عندما يجلس وحيداً غارقاً فى لجج من أفكاره . وقد تحدث إلى لنكولن فى إحدى الأمسيات — بكوينسى — الكاتب الساخر دافيد ر. لوك المعروف باسمه الصحفى بتروليام ف. ناسبى ، وقال له « لم أر فى حياتى وجهاً يعلوه التفكير ، ولا وجهاً معبراً ، ولا وجهاً أشد حزناً من هذا الوجه . . » .

وقص لنكولن على لوك أنه يأمل أن يحمل الولاية على أن تدلى بأصواتها ، لكنه لايتوقع أن يهزم دجلاس فى مجلس الولاية التشريعى (وهو الذى

كان ينتخب الشيوخ فى تلك الأيام). وشرح للوك أن عدة مراكز انتخابية . ضمت للدائرة بطريقة ماكره وأن تلك مناورة غير عادلة لترجيح كفة خصومه الديمقراطيين .

وأثبت لنكولن مرة أخرى صدق تنبؤاته . فعندما اجتمع المواطنون فى يوم ٢ نوفمبر ١٨٥٨ المطير للاقتراع ، حصل لنكولن على ١٢٥,٢٧٥ صوتاً مقابل ١٢١,٠٩٠ صوتاً لدجلاس . لكن المجلس التشريعى أعطى دجلاس ٥٤ صوتاً مقابل ٤٦ صوتاً للنكولن عند انتخابه لعضوية مجلس الشيوخ.

وعندما سئل عن شعوره بعد سقوطه فى الانتخابات ، قص لنكولن حكاية الصبي العارى القدمين الذى اصطدم فى أصبع قدمه . « وكانت الصدمة تؤلمه بشدة إلى درجة لا يمكنه معها الضحك وفى نفس الوقت كان كبيراً على الصراخ » .

وعلى الرغم من سوء حظه الجديد فإن لنكولن ظل عنصراً ذا أهمية بالنسبة للمواطنين فى البلاد . وخلال العام والنصف التالية حاول استعادة أعماله القانونية التى أهملها رغماً عنه خلال عام ١٨٥٨ . وظل يلقى بخطبه التى لم تكن سياسية دائماً . وبالرغم من أن اسمه كان يذكر للرئاسة فإنه كان نافراً حتى بالنسبة للحلم بأى منصب عال . وقد أجاب لنكولن على رؤساء تحرير الصحف الذى كان يبدى استعداده لمساندته بكل قوته «يجب أن أعترف بأننى لا أظن فى نفسى الكفاءة لأصبح رئيساً ..» .

وتغيرت نظرته للموضوع ببطء فى خريف ١٨٥٩ . ففى خطاب بعث به إلى ليمان ترومبل فى ٢٩ إبريل ١٨٦٠ عرض لنكولن آماله الكبار فقال « إن طعمها فى فمى بعض الشىء » وطلب من ترومبل أن لا يدع عيناً أخرى ترى ما خطه إليه .

ولقد كان هذا التغير فى قلبه وآماله بلا شك راجعاً إلى الاستقبال الرائع الذى قوبلت به خطبة لنكولن فى اتحاد منتجى النحاس بمدينة نيويورك ، والتصفيق الحاد الذى جاء ، كتحية لزيارته غير المرسومة والتى لم يعد لها فى نيو إنجلند. وكان لنكولن يحلل إمكانيات بقية الزعماء الجمهوريين فى ترشيحات الرئاسة ويجد بعض نقط الضعف فى حظ كل منهم فى النجاح. فقد كان ويليام ه. سيوارد من نيويورك، وسالمون بشيز من أوهايو،وسيمون كاميرون من بنسلفانيا ، واثنين من كبار رجال القضاء ، جون ما كاين القاضى بالمحكمة العليا للولايات المتحدة من أوهايو ، وإدوارد باتس من ميسورى ، أكثر زعماء الجمهوريين احتمالاً لاختيار أحدهم كمرشح للرئاسة . لكن كل منهم حتى ويليام ه. سيوارد ، أكثرهم شعبية ،كانوا إما يفتقدون التأييد فى بعض المناطق الشمالية وإما أغضبوا الناخبين بتصريحات متطرفة .

ولقد ازداد التأييد الشعبي للنكولن لموقفه المعارض من الرق وبالرغم من بهم غير المبنية على أساس فلم يكن لنكولن يود تحطيم الاتحاد بسبب مشكلة الرق ، فهو لم يكن أبداً من المخربين . وقد أمده عقله الشارد بإحساس أن حظه سيكون أحسن قطعاً فى المؤتمر الوطنى للجمهوريين . ولم يكن هناك شك انه « الابن المفضل » فى ولايته . وقد ثبت هذا فعلا فى مؤتمر إلينوى الجمهورى فى ديكاتور ، عندما نال لنكولن جميع الأصوات الانتخابية . وقد جاءت اللحظة الحاسمة لهذا التجمع عندما سار جون هانكس ومعه صديق يحملان قضيبين يرمزان إلى أن أبراهام قد شقهما منذ ثلاثين سنة،عندما أتى إلى بلدة ما كون التى ذهب إليها المندوبون بجنون مزج بالفرح ، وبدا لنكولن « شاقق القضبان » كأنه الوحيد المحتمل الذى سيجمع الأصوات .

وعندما جاء الجمهوريون يتدفقون إلى شيكاغو لحضور مؤتمرهم الوطنى فى ١٦ مايو ١٨٦٠ بلغت الإثارة قمتها ، وقد أحضر بعض المندوبين كسيوارد

فرقاً موسيقية فى زى موحد . وتجمع أنصار أبراهام لنكولن من كل صوب وحدب وساروا فى شارع ميتشجان محدثين ضجة تفوق تلك التى تحدثها فرقة سيوارد الموسيقية . وارتدوا قبعات وقلنسونات حديدية تبرق فى ضوء الشمس نهاراً وتلمع فى الليل على ضوء المشاعل التى كانوا يحملونها والتى تشتعل بالكيروسين .

وبينما كان الغناء والعزف يسيران بعنف أمام بحيرة شيكاغو كانت المشروعات الخطيرة ترسم فى حجرات الفندق المليئة بالدخان للحصول على النصر بكل أنواع الحيل المشروعة أو غيرها . وكان من بين أهم منظمى الحملات الانتخابية تارلو ويد ، زعيم نيويورك السياسى يكافح من أجل سيوارد ، وسيمون كاميرن زعيم بنسلفانيا السياسى يقاتل من أجل نفسه .

اختار لنكولن أن يبقى فى سبرنجفيلد لكن منظمى معركته وعلى رأسهم القاضى العظيم دافيد دافيز ، الذى لف دائرة محكمة الولاية مع لنكولن ، كانوا مشغولين تماماً كانشغال المنافسين الآخرين .

وقد أرسل لنكولن برسالة إلى منظميه . «لا ترتبطوا بعقود تقيدنى» .

وانتظر لنكولن الأمين بصبر فى سبرنجفيلد . ولعله لم يكن يعلم بما يدبره أصدقاؤه لمصلحته ، فقد عقدت الاتفاقات وبينها وعود هامة بالمناصب الوزارية فى الحكومة الجديدة . لكن الخير جاء عن طريق هذه المناورات السياسية . وقدر المواطنون الأمريكيون الخسارة التى سوف تصيبهم إذا خسر لنكولن . وكانت أصعب دورة جرت فى تاريخ البلاد لاختيار رئيس أمريكى .

تركزت أهمية المندوبين بعد هذا على المبنى الخشبى الواسع الذى أقيم فى سرعة من أجل المؤتمر . وأحيط من كل جوانبه بالضجة المعتادة التى تشهدها كل المؤتمرات السياسية ، وألقيت خطب الترشيح وهى قصيرة فى تلك الأيام . وفى وقت قصير دخل المندوبون للإدلاء بأصواتهم .

جرت الجولة الأولى . . وحصل سيوارد على ١٧٣½ صوتاً مقابل ١٠٢ للنكولن . بينما حصل كاميرون على ٥٠½ صوتاً ،وشيز على ٤٩½صوتاً ، وباتس ٤٨ صوتاً . . فى حين ذهبت أصوات ٤٣ مندوباً إلى بعض المرشحين الآخرين . .

وسمع النداء « ادعوا للانتخاب !! ادعوا للانتخاب!! . . »

وبدأت الجولة الثانية ، وحصل لنكولن على ١٨١ صوتاً لكن سيوارد ظل يتقدمه بثلاثة أصوات ونصف .

وعاد نداء « ادعوا للانتخاب !! ادعوا للانتخاب !! . . يدوى من جديد فى المندوبين .

كانت الأصوات الكفيلة بقبول الترشيح لا تتعدى ٢٣٣ صوتاً . وفى الجولة الثالثة قفز لنكولن ليصل إلى ½ ٢٣١ صوتاً . وكان فى حاجة إلى صوت ونصف ليحرز النصر . .

وقفز مندوب أوهايو واقفاً . . « أنا أقف (هه) ياسيدى الرئيس (هه) لأعلن تغيير أصوات أوهايو الأربعة من مستر شيز إلى مستر لنكولن ..» .

وحدثت ضجة كبرى فى الجمع عندما فرح المندوبون وصفروا ولوحوا بقبعاتهم فى الهواء . . . . وأعطيت إشارة لرجل كان ينتظر على سطح القاعة فشد حبلا صغيراً فانطلق مدفع النصر يدوى فى الفضاء .

وفى مكتب جريدة (إلينوى ستيت جورنال) فى سبرنجفيلد ، كان لنكولن وبعض أصدقائه ينتظرون بأقصى ما يمكن التمسك به من حدود الصبر . . وفجأة وصلت البرقية . . « لقد نجحنا . النصر من عند الله . . . » .

وعندما رقص جيرانه المخلصون من الفرح وغنوا وتواثبوا ، قال لنكولن بهدوء . . « أيها السادة . . حسن جداً . هناك فى منزلنا سيدة صغيرة قد تكون أشد اهتماماً بكل هذا الموضوع منى أنا شخصياً . وإذا عذرتمونى . . فسأحمل إليها هذه البرقية لتراها . . . » .

لايمكن لإنسان أن يتنبأ بنتيجة مائة فى المائة . وبدا حظ الجمهوريون ممتازاً بعد أن انشق الحزب الديمقراطى (وبعض الفضل يرجع إلى المناورة الماكرة التى قام بها لنكولن فى فريبورت) . كان ستيفن أ . دجلاس مرشح الديموقراطيين الشماليين . وكان جون ك . بركينر يدج مرشح الديموقراطيين الجنوبيين ، ولم يقلق أحد بشأن جون بيل الذى سانده حزب سمى نفسه الاتحاد الدستورى .

وعندما أشرق فجر يوم الانتخاب التاريخى فى ٦ نوفمبر ١٨٦٠ والجنوبيون يهددون بحرب أهلية ، اندفع المواطنون إلى صناديق الانتخابات والجو مشحون بالانفعال والإثارة ، والكل يحس أن أكثر من انتخاب يلوح فى الأفق .

فاز لنكولن . صحيح أنه لم يفز بأغلبية كبيرة ، لكن بعدد كبير من الأصوات . وكانت نتيجة الانتخابات النهائية ١٫٨٦٦٫٤٥٢ صوتاً للنكولن ، و١٫٣٧٦٫٩٥٧ لدجلاس ، و٨٤٩٫٧٨١ لبريكنريدج ، و ٥٨٨٫٨٧٩ لبيل . وانتصر لنكولن بعد كفاح مرير بينه وبين دجلاس .

أثبت أبراهام لنكولن الذى ولد فى كوخ خشبى أن أمريكا فعلا هى بلد

الفرصة السانحة . وعلى مرمى البصر أمام لنكولن كانت ترقد المسئوليات التى لم يحملها إلا بضعة رجال على أكتافهم . وعلى لنكولن أن ينمى عقله وقلبه بل روحه أيضاً ليكون أهلا لهذا الحمل . وعلى مرمى بصره كان المجد ، وهو الذى كان سيصبح زعيماً لكل بنى وطنه ، وفى نفس الوقت كانت المأساة التى قسمت قلوبهم بسبب الحرب الأهلية . كان هو الرئيس الجديد للولايات المتحدة الأمريكية . وأصبح مما لاشك فيه أن مارى لنكولن قد نالت كل ما تمنته وأصبحت سيدة البيت الأبيض .. السيدة الأولى فى البلاد .

الفصل الثاني عشر

لا حقد نحو أحد

« أنا أعلن لكم وداع المحب .. »

أ . انكرلى

حزم لنكولن حقائبه بنفسه وعنونها الى « أ . لنكولن — البيت الأبيض — واشنطن » ، وأجر محل إقامته فى سبرنجفيلد وقام بآخر زيارة لزوجة أبيه الحبيبة ساره بوش لنكولن . وكان عليه أن يخبر بيلى هيرندون أن يترك عملهما المشترك كما هودون تغيير . . « فعندما أتركك الآن أشعر إننى سأعود يوماً ما .. أو لا أعود على الإطلاق . . ويوم أعود سنمضى سوياً فى ممارسة القانون كأن شيئاً لم يحدث من قبل .. » .

كانت تلك هى تفاصيل حياته العادية عند رحيله . لكن فى الدقائق القليلة التى خلا لنكولن فيها لنفسه أحس أن البلاد تكاد تتردى على شفى حرب أهلية ، رغم أنه حاول أن ينكر هذا بينه وبين نفسه . وصلى الرئيس المنتخب بكل حواسه ليمنع الأضرار الجسيمة وإراقة بحور الدماء التى قد يمكن تجنبها بمجهود كريم وكبير .

وفى صباح ١١ فبراير ١٨٦١ ، وكان اليوم مطيراً ، سار مع مودعيه فى طريق محطة سكة حديد الغرب الكبير حيث كانت فى انتظاره قاطرة صغيرة يلحق بها عربة عفش وعربة تدخين وعربة ركاب ، كانت كلها تكون القطار الخاص للرئيس .

وعندما وقف لنكولن على المنصة الخلفية وأمامه صفوف متراصة كالأمواج من المظلات والوجوه تتطلع إليه . . تحدث إلى الجموع قائلا فى هـــدوء :

« أصدقائى . لا يمكن لأحد إلا فى موقفى هذا أن يقدر شعور الحزن العميق لفراق هذا المكان ولهؤلاء الناس برقتهم وعطفهم . أنا مدين لكم بكل شىء . فلقد عشت هنا بين ظهرانيكم ربع قرن ، وخطوت سنى العمر من الشباب إلى الكهولة . هنا ولد أبنائى وهنا وورى أحدهم التراب . لست أدرى متى أعود وقد لا أعود أبداً . وأنا أغادركم اليوم وعلى عاتقى مهمة أكبر من تلك التى تحملها واشنطن نفسه . وبدون معونة الله لا أستطيع أن أنجح . وبمعونة الله لن أفشل . وبثقتى فيه وبتأييده لى وأنتم معى ، وكلنا نعمل من أجل الخير . . دعونا جميعاً نأمل باخلاص أن كل شىء سيكون على مايرام . وبعناية الله التى تحكمكم وبصلاتكم ودعواتكم من أجلى ، أعلن لكم وداع المحب » .

ودوى صفير القاطرة الصغيرة ، ودق ناقوس المحطة واختفى القطار ببطء متجهاً إلى العاصمة البعيدة التى ترقد فى قلب أمة متعبة .

وفى كتاب يتناول حياة لنكولن فى ولايات الغرب الأوسط ، قد يبدو غريباً أن نشير إلى ما حدث أثناء رئاسته . ولكن كيف يستطيع المرء أن يصور تاريخه بكل معانيه دون هذه الإشارة ؟

وكما رأينا فإن لنكولن عرف بطيبته المتناهية وكرهه للعنف والظلم والحرب . ولكن الحرب أصبحت مسألة حتمية . فبعد أن انطلقت مدافع

الاتحاديين على « فورت سامتر » ، تجمعت جيوش الشمال والجنوب المتخاصمة تحت قيادة جنرالاتها ، لتبدأ المأساة الدامية التى استمرت أعواماً أربعة .

اختلف تفاوت متطوعى القسمين المتنازعين فى المثالية والشجاعة . متوسط الوزن الطول .. لون الشعر والبشرة والعيون .. حب أسرهم وبلدهم. تركوا خلفهم أمهات تنتحب وآباء فخورين . وفتيات تربطهم بهن علاقات حب .. وبالحمية التى قذفت بالملتحين من الرجال وأولئك الذين لم تنبت لهم لحى بعد ، وهم من الشباب الغض الذين كان أولى بهم أن يربطوا الشمال بالجنوب، دخلوا فى صراع ملىء بالغضب ، وفى بعض الأوقات تفاخر البعض بشجاعة هؤلاء عندما قاتل بعضهم البعض .

ودوى صوت المدافع الكبيرة تقذف بالحمم لتدخل فى صدور المتقدمين من الجيشين ذوى اللونين الأزرق والرمادى . ومن خلف المتاريس المصنوعة من الحجارة أو فى الخنادق جاءت أصوات البنادق وسقط الرجال وفى قلوبهم طعنات السونكى تقتلهم أو تدنيهم من الموت فيحملون إلى الصفوف الخلفية.

وجاء أعضاء الكونجرس وعقيلاتهم ليشهدوا المعركة الأولى فى بول رن وكأنهم فى نزهة ممتعة ولكن عندما وقف الجنرال جاكسون الجنوبى كالحائط المتين البنيان ، وعندما بدأت قوات الاتحاد المتقدمة تتراجع اضطر هؤلاء السادة وعقيلاتهم إلى البحث عن أسرع الطرق للهروب عائدين إلى واشنطن. واكتشفت الأمة أن الحرب لم تكن مجرد نزهة لطيفة .

وكان هناك بعض الغرور فى كلا الجانبين سنة ١٨٦٢ ، فخلال حملة بنينسولار ، كان القتال فى وادى شيناندوه يدور عنيفاً والدم يسيل بغزارة كما حدث فى معارك بول رن الثانية وانتيتام وفريدركسبورج . وكانت الخسائر فادحة .

وفى عام ١٨٦٣ بدأت الحلقة تدور مرة أخرى لتقترب من الاتحادية. وأعلن لنكولن أن العبيد « من الآن وإلى الأبد أحرار » . وسقطت فيكسبورج فى أيدى قوات الاتحاد بعد فترة طويلة ورغم القتال البطولى الذى قاتلته قوات لى ، فقد حوصرت من الخلف فى جيتسبورج .

وبعد أن حاول لنكولن أن يجد قائداً فى ماكدويل وماك كايلن وبيرنسيد وهوكروميد ، وجد أخيراً هذا القائد فى الجنرال يوليسس س. جرانت . وخلال عام ١٨٦٤ قاتل هـــذا الجنرال مدخن السيجار وشارب الويسكى الكبير ، قاتل بقسوة فى وايلدرنس ، وفى سبوتسلفانيا كورت هاوس ، وفى كولد هاربور ، وحول ريتشموند وبترسبورج ، قبل البدء فى رحلته الطويلة إلى عاصمة الاتحاد . وفى نفس الوقت كان شيرمان يقطع الطريق خلال جورجيا حتى وصل إلى البحر .

ومن بين العواصف التى أثارتها المدافع كان هناك صوت حكيم يسمع بين كل حين وحين .كان صوت لنكولن يحاول جاهداً أن يهدىء الحقد أثناء القتال والمعارك .

قال الصوت العظيم .

« بمنح الحرية للعبيد ، نحن نؤمن حرية الأحرار » .

وقال مرة أخرى ..

« منذ سبعة وثمانين عاماً ولد آباؤنا على هذه القارة ، وولدت أمة جديدة تنعم بالحرية وتؤمن بالحقيقة التى تقول إن كل الناس ولدوا متساوين . والآن دخلنا فى حرب أهلية كبيرة لم تشهدها هذه الأمة ولا أية أمة أخرى ولا يمكن أن نحتملها » .

وأخيراً وقبل أن يسكت هذا الصوت إلى الأبد بما يزيد قليلا على شهر واحد، جاءت كلمات خالدة لم تصدر عن أى رئيس حكومة فى أزمة كبيرة تواجهه كتلك الأزمة.

« بلا حقد نحو أحد . وبالإحسان إلى الجميع . وبإصرار على الحق كما أمرتنا السماء أن نرعى هذا الحق . دعونا نندفع بكل طاقاتنا لننهى العمل الذى ترديناً فيه ، لنضمد جراح هذه الأمة ، ولنعتنى بذلك الذى حمل عبء هذه المعارك ، وبأرملته والأيتام الذين خلفهم . لنعمل كل مافى وسعنا لتحقيق وإحياء الحق ، وخلق سلام دائم يسود بين ظهرانينا ومع كل أمم العالم ».

وعندما أعلن لنكولن ميثاق الرحمة هذا فى خطابه الافتتاحى الثانى فى ذلك اليوم العصيف الممطر يوم ٤ مارس ١٨٦٥ ، خرجت الشمس من خدرها وسطع ضوءها مباشرة ليسقط عليه . وكان هذاعلامة خيرعند بعض المستمعين وأحسوا بأن السحب القاتمة التى ظللت الحرب قدانقشعت وخرج منها نور الأمل يشع على أمة مجاهدة متفرقة .

وأخيراً عندما أجبر روبرت أ . لى وفلول قواته ـ وهى تعانى قلة الطعام والمعدات الطبية والذخيرة ـ على التسليم ليولسيس جرانت فى أبوماتكس كورت هاوس فى التاسع من إبريل ١٨٦٥ أنقذ الاتحاد ، ولكن . . . بعد دفع الثمن الباهظ . فقد اهتز الشمال تأسفاً على الحالة بعد الحرب ، لكن الفرح سرى عبر المزارع إلى القرى والمدن . وحتى فى الجنوب بالرغم من مرارة الهزيمة كان هناك نوع معين من السعادة بالخلاص من الألم بانتهاء الحرب .

لم يستطع الرئيس لنكولن أن يشهد وقف إطلاق النار ، فقد سقط قتيلا برصاصة أحد المغتالين فى مسرح فورد بواشنطن ، عندما كان يجلس

مع زوجته فى مقصورة يشاهدان مسرحية (ابن عمنا الأمريكى) . أطلقت الرصاصة من غدارة نحاسية تزن ثمانى أوقيات كانت بيد الممثل المهووس جون ويلكس بوث فختمت حياة الصبى الذى ارتفع من الفقر والجهل والأمية ، ليصبح واحداً من أكبر ومن أشهر وأكثر الزعماء الذين عرفهم العالم رحمة . لو عاش لنكولن لكان من المحتمل أن ينقذ بلده من كثير من المرارة التى لازمت سنى التعمير . لأنه من المؤكد أنه كان سيرفض الانتقام من الجنوب المنهزم . لقد أراد أن « يعيد تضميد جروح الأمة » . وكانت خسارته هى خسارة أى مواطن شمالى أو جنوبى من أى سلالة ، أو من أى لون . وبموته فجع الجميع فى وفاته وفقدوا مصلحاً عظيماً كان « لا يحمل الحقد لأحد مع الإحسان للجميع » .

وكما قال لنكولن عندما غادر سبرنجفيلد ، لم يكن يعرف متى يعود وقد لا يعود أبدا . وراح قطار لفه الحزن يمر خلال المدن والبلاد والقرى حيث بكاه الآلاف الذين وقفوا خلال أيام شهر إبريل ولياليه ، ليقدموا الوداع الأخير لأبراهام لنكولن الذى عاد لبلده إلينوى لينام هناك حتى يوم الحساب .

وستظل ذكراه دائماً أبداً كلما تفتح زهر الزنبق فى شهر إبريل من كل عام .

مطبعة المعرفة
ت ٣٣٩٩٠

عالم الكتب
٥,٠٠٠

الناشر
عـالم الكتب